

# بِقَلَمِي وَبِحَبِي دُهَا

الدكتور سید المرعشی العجمي

مکتبہ ایلوہیہ الاولیاء  
للشیر والتوزیع

بِقَلَمِي  
وَيَسْمِي دَمًا

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م

كُلُّ الْيَاقُوتِ الْأَوَّلِيِّ  
لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِينِ

[Falaslmi@gmail.com](mailto:Falaslmi@gmail.com)

الكويت: هاتف: ٠٨٢ ٢٤٥٧٠٠٨٢ - ٩٦٩٩٩١٨٢ (+٩٦٥)

حولي - شارع المثني - بجوار مجمع البدر

تلفاكس: ٢٢٦٤١٧٩٧ (+٩٦٥)

بِقَلَمِي  
وَبِيَدِي وَهَامَا

الدكتور سينا المرحوم العجمي

كتاب الألفاظ الدلالية

للشعر والتوزيع

إذا أردت أن تبلغ الغاية في فهم مشاعر الآخرين..  
فانظر إلى مشاعرهم بعيونهم لا بعينك..  
واستشعرها بأحاسيسهم لا بإحساسك..  
فهناك ستعلم كيف يفكرون



## مدخل ..

هذه مجموعة من المقالات، وإن شئت فقل: مجموعة من المشاعر؛ بدأت بين كثبان الرمل، وانتهت بأحاسيس الفقد وآلام الرحيل، وبين هاتين المرحلتين توقفت في محطات عبور، فلاح للناظر من خلالها جبل لا يهتز حتى لا يرى انكساره، وأعينٌ تبحث عن دموع لتشتري، وفي زاوية بعيدة وقف شخصٌ لا يستطيع أن يعبر عما في نفسه، وآخر يملك التعبير ولكن لم يجد من يفهمه، فصبر على أعاصير الحزن طمعاً في أن يرى غداً أفضل.

إنها ليست مجرد كلمات، بل هي رَسْمَةٌ تشكَّلت من أحداث الحياة؛ لتنقل مشاعر متفاوتة، وصدى كلماتٍ ربما ينتفع بها شخصٌ ما زال يبحث عن سبيل للراحة، أو آخر ما زال يتأمل في الوجوه العابرة بحثاً عن أشخاص يشعر معهم بالأمان النفسي، وآخر تخطى حدود الألم بحثاً عن أمل، ربما لن يصل إليه، وربما إذا وصل إليه رحل.

جميلٌ أن تصل إلى قلوب مَنْ تمر بهم، أو يمرُّون على كلماتك فيشعرون أنك تكلمت بما يدور في أنفسهم، في الوقت الذي لا يعجزون هم عن التعبير عما يعيشونه أو يشعرون به، ولكن صادفت عباراتك وقتاً كانوا أحوج فيه إلى من يصف شعورهم وهم يتأملون بصمت، وقد كان ما فعلته أنت هو مجرد جرأة

في التعبير، جعلتهم يفكرون واقعياً بالخروج من دائرة الوهم، ويبدأون بتحريك المياه الراكدة؛ ليكتشفوا أنّ في داخلهم رُوحاً تستحق أن تستمتع بما حولها، خلال رحلة تمضي دون توقُّف.

كم نحتاج إلى أن نكتب أنفسنا حتى نعبر عنها، وكم نحتاج إلى أن نفهم الآخرين لنستطيع أن نبوح نيابةً عنهم فيما عجزوا عن إظهاره، ليذوقوا طعم السعادة حين يجدون من يفهمهم ويشعر بهم.

وكم هو جميلٌ أن نبحثَ بين الجُمَل والكلمات عمّا يساعدنا لنعيش واقعاً مبهِجاً، قد نصل إليه ذات يوم، ولكن على الرغم من ذلك لا ينبغي لنا أن نرفع سقف طموحاتنا فوق المتوقع، فبطبيعة الحال لو حاولنا أن نستدرك كل ما يدور في مخيلتنا من أسباب الحصول على واقعٍ مكتمل، لا بدّ أن يبقى في النفوس شيءٌ ما.

فهذه المقالات لا تمثل حياة شخص، وإنما تحكي مشاعر أشخاصٍ متفرقين جمعهم قلمٌ واحد.

فما نكتبه ليس بالضرورة أن يكون جزءاً من حياتنا، ولكنه بلا شك جزءٌ منا وقطعةٌ من قلوبنا.

كتبه

الدكتور سناء العجومي

## المشاعر

مشاعر الإنسان تمثل جزءاً كبيراً مهمّاً في حياته، ولها تأثير قويّ في طريقة تعامله مع الحوادث والأشخاص، سواء كانت هذه المشاعر جبليّةً فطريّةً تتمثل في العواطف، أو كانت حادثة طارئة تُترجم إلى أحاسيس.

وعلى كل حال، فإن هذه المشاعر ركن عظيم تقوم عليه شخصية الإنسان، ولذلك تجد أكثر ما يشوّش على المرء ويجعله يخرج عن اتزانه حين يكتشف شخصاً يحاول أن يتلاعب في مشاعره أو أن يتجاهلها فيعامله وكأنه جدار، أو أن يمنعه من التعبير عن مشاعره وكأنه يريد أن يكتفم أنفاسه.

ولا يقتصر الفهم حين نتحدث عن المشاعر على علاقات الغرام ومشاعر الهيام، بل الأمر أكبر من ذلك، فهو يخص كلّ ما يمس مشاعر الإنسان من أيّ نوع كانت، وبأي شيءٍ تعلق.

ذُكر عن أحد الشعراء أنه طارت منه ورقةٌ قد دوّن عليها قصيدة في يومٍ شديد الرياح، فلحقها طويلاً حتى أعيته، وبعد عناءٍ أمسك بها فسُرّ لذلك وابتهج، والناس مستغربون مما يرون، فلما أقبل عليهم، قالوا له: كل هذا الركض وراء قصيدة؟!

قال: أنتم لا تعلمون، لقد حَبَّرْتُها من دم قلبي.



ولذلك من الخطأ أن تزدرى مشاعر الناس مهما كنت تراها صغيرة، فإن صاحبها ينظر من منظار آخر لا يتبين لك، وقد لا يهمنه أن تصل إلى حقيقة مشاعره، بقدر ما يضيق ذرعاً إن حاولت أن تزدرى هذا الشيء الذي يراه جزءاً من حياته.

الأسماء، الأشخاص، الأماكن، الذكريات، تمثل أمراً بالغ الأهمية في حياة صاحبها، فتعامل معه بحذر حتى لا تحزنه في وقتٍ يحتاج منك إلى كلمة تشجيع أو مواساة، أو على الأقل تشعره بأنه ثمة شخص عرف كيف يفكر، وبماذا يشعر.

ربما لا نستطيع في أحوال كثيرة أن نقدّم لأصحابنا خدمة حسية، بل وهم لا يريدون ذلك أصلاً، لكن جميل أن يستشعروا أنه ثمة أناس قريبون منهم.

أتعرف كيف يكون استشعار مشاعر الآخرين؟

هو باختصار أن ترى ما يفكرون فيه ويشعرون به كبيراً، في الوقت الذي يراه الآخرون شيئاً عادياً، هذا إن لم يروه شيئاً تافهاً وتفكيراً قاصراً أصلاً.

المشاعر التي يبثها الناس نحو ما يحبون أو يميلون إليه لا يعني أنه شيء كبير بالفعل، فقد يكون شيئاً صغيراً على أرض الواقع، ولكن تعلق القلب به جعله كالجبل، وبخسارته يخلفه جرح عميق وحزن لا ينضب.

لا تخجل أن تبث مشاعرك، ولا يلزم أن تحدث بها شخصاً ما، ولكن تعامل بها على أرض الواقع، فإذا مرّ بك ما يهيجها، فلا تمتنع من إطلاق زمامها، وفكّ



قيودها، فإنك إن فعلت، دَلَّ ذلك على أنك ما زلت تملك قلباً نابضاً مفعماً بالحياة.

ولذلك كان من علامات سعادة المرء إذا كبر سنه أن يرق قلبه وتلين مشاعره، وتذهب عنه القسوة - إن كان قد اتصف بها في سالف أيامه - فتجده في آخر عمره قادراً على التعبير عما يحتويه قلبه من المشاعر، تارةً بالكلام وتارةً بإفاضة الدموع حتى تبل فؤاده فيعود رقيقاً ليناً.

ومن أكبر علامات الشقاء أن يتصف قلبه - وقد تقدم سنه - بالقسوة والغلظة حتى ينكره ويجد بينه وبينه الوحشة وهو بين جنبيه.

ما أجمل أن يتمتع المرء بالمشاعر المتدفقة الجياشة، والأجمل أن يتعامل معها كجزءٍ من حياته، ودافعٍ لتقويم شخصه، ولا يرى أن التعبير عنها نوعٌ من الضعف، فإنه لما عجز البعض أن يحوز هذا الكنز، جعل الاتصاف به نوعاً من العجز، ولكن الحقيقة أن القوي هو الذي يستطيع أن يسخر إمكانياته لخدمة نفسه حتى يكون شخصاً طبيعياً، فكيف إذا كانت هذه الإمكانيات تتمثل في المشاعر التي تبعث الطمأنينة في النفوس، وباباً إلى قلوب الآخرين، فتجدهم يسارعون من خلاله إليك، فيجدون عندك القلب الحاني الذي يستشعر آلامهم ويشجع آمالهم، وتجد لديهم بغيتك في تليين قلبك، ونزع رداء الجفاف الذي يحاول أن يلتف حولك.

فإذا أردت أن تبلغ الغاية في فهم مشاعر الآخرين، فانظر إلى مشاعرهم بعيونهم لا بعينك، واستشعرها بأحاسيسهم لا بإحساسك، فهناك ستعلم كيف

يفكرون، وترى ما كنت تستصغره كبيراً، فيسهل عليك أن تجمع لهم ما تشتت  
من أفكارهم فتدلهم على الأمان.  
وترسل رسالة إلى غيرك قائلاً: إذا أردت أن تفهم مشاعري فانظر إليها  
بعيني لا بعينك، فهناك ستعلم من أنا.

## كُثبان الرمل!؟

بين الفينة والأخرى يأخذني الطريق؛ أو أنا أسلكه نحو مكانٍ لم يزل مقيمًا في ذاكرتي، قائمًا في مخيلتي، فأمرُّ به وقد تغيَّرت معالمه، لكنني أرى فيه الطفل الذي كان يظن أن عجلة الأيام ستقف عند ذلك الحد، ولن يكون ذلك الشخص الذي تغيَّرت ملامحه كما تغيَّرت رسوم ذلك المكان.

يحملني الحنين دائمًا إلى كُثبان الرمل التي اجتمعت؛ ثم علت وارتفعت حتى صارت جبلاً - هكذا كنا نسميها ببراءة الطفولة -.

ولم أزل أتذكر تلك الضحكات الشاهقة، وضجيجنا الذي ملأ الآفاق، ولعبنا على تلك الكُثبان حين موعد فسحتنا وتنزهنا على ظهرها، في وقتٍ كنا نظن أنه لا يوجد أحدٌ على وجه البسيطة يعيش مثل سعادتنا.

كانت الرحلات غالبًا ما تكون مع أبناء الجيران، في الوقت الذي لا يميز الداخل إلى البيت لأول مرة أبناء صاحب الدار من أبناء جيرانه، أسرةً واحدةً بما يحمله معنى الأسرة، وكبارٌ عقلاءً يتجاوزون توافه الأمور لتبقى علاقات الصغار متينة، ويزرعون الوفاء ولو كان المقابل لا يسقيه.

كنا نلعب ذكورًا وإناثًا لأننا حينئذٍ لم نكن نحمل نفوسًا تعرف الطمع، بل نتعامل وكأننا إخوة ومحارم.

ولما كبرنا علمنا أن السعادة التي كنا نعيشها في سالف أيامنا ليس سببها فقط أننا كنا أطفالاً أبرياء، بل السبب الرئيس هو أننا لم نكن نحمل مسؤوليات تنسيك نفسك، وتلهيك عن مصالحك، وتقتل مشاعرك في الوقت الذي تكون أحوج ما تكون فيه إلى تلمس قلبك، فإذا به وقد أتك من أخرجك إلى عالم بعيد يقتلك همًّا ويزيدك أسي.

قلت ذات مرة لصاحب لي -وقد غبنا عن بعضنا طويلاً بسبب مشاغل الدنيا-: أتدري، أصبح يراودني هذه الأيام شعورٌ دائمٌ بالشوق إليك، فقال مازحاً: هذا من علامات تقدّم العمر.

بالفعل، بدأت أشتاق إلى معارف الصغر، والعلاقات الصادقة التي تحبك لذاتك، وتقرّبك لأنها تأنس بك، وإلى كل مكان يحمل ذكرى قد مرّت بي مهما كان نوعها.

وبدأت أشتاق إلى كُثبان الرمل التي كنت أظنها جبلاً، فلما قادتني إليها قدماي بعد زمن، فإذا بالرياح قد نحتتها، ولم يبق منها إلا مرتفع صغير يكاد يعانق الأرض المنبسطة، فقلت في نفسي: حتى الرمال تأبى إلا أن تكون من عداد الذكريات.

كم حملني الشوق إلى أن أبحث عن ذكريات الماضي، وأضيق ذرعاً بمن يدخل إلى عالمي هذا بموضوع يخرجني عن لذة الحنين إلى الذكريات.

كنت ذات مرة مع أحد كبار السنّ ممن أحب مجالسته، وقد كان رجلاً شديداً، وكان ذا معرفة بالقيافة ومعرفة الأثر، فأخذني العجب حينما حدثني

بموقف مرّ به، قال: أدركتنا الصلاة فوقفنا على جانب الطريق لنصلي، وفي أثناء الصلاة، جاء رجلٌ ليصلي معنا، فلما وقف بجانبني، عرفت من قدميه أنه فلان، وقد كان عهدي به منذ أكثر من ثلاثين عامًا، فوالله لما عرفته لم أتمالك شعوري حتى كِدْتُ أنحني على قدميه لأقبّلها!

لما سمعتُ القصة وأنا في غاية العَجَب، لم أستغرب كيف عرف أقدامه بعد هذه المدة الكبيرة؛ لمعرفتي أنّ هذا علمٌ معروفٌ يُسمّى القيافة، ولكن تملّكني العجب من أن الذي كان يتحدث بها هو من أشدّ الناس شكيمة وأشجعهم قلبًا، فعلمت حينئذٍ أن العاطفة أقوى من الطباع والعادات.

وها نحن بين الحين والآخر نفتش في أنفسنا بقصدٍ أو بغير قصد، فنجد في زوايا قلوبنا، ما لم نكن نتخيل أن يكون له أثر في حياتنا، فإذا به يستمطر أدمعنا، وترتجف له قلوبنا، ونلتفت في وجوه المحيطين بنا، لعلنا نظفر بشخص يفهم شعورنا، فنخبره بأحاسيسنا، ليس لكوننا نريد منه حاجة أو يحملنا الاضطرار إليه، ولكن ربما لكوننا نستشعر أننا بحاجة إلى التفكير بصوت مسموع.

ولأجل ذلك كان أقرب الناس إليك في هذه المواقف هو الشخص الذي تشعر أنه يحس فعليًا بما تقول؛ والأجمل أن يقول لك: وأنا أجد مثل هذا الشعور الذي يمرّ بك، فتشعر أنّ بينكما نقطة التقاءٍ وحبلٌ تواصل، يجعله أقرب الناس إليك.

لا أنسى ما حدث معي ذات مرة، حيث كنت أكلم شخصًا في الهاتف حول موضوع يشكّل بالنسبة لي أهميةً بالغة، وعندني رغبة فيه وتطلّعٌ إليه، فلم يتيسّر

لي، وكان بجانبني أحد جلسائي، وتربطني به علاقة ودّ، فلما رأى تغير ملامحي، فإذ بوجهه يتغير، وتعلوه غيمة حزن، فقلت له: مالك؟ قال: أخذني الحزن لأنني استشعرت أنك تريد هذا الأمر، ولكنه فاتك ولم يتحقق لك.

فأين تجد مثل هذا النفس الجميل، وهذه النفس الرائعة، والإحساس الرقيق الذي لن يغير واقعك، ولكن على الأقل يشعر أنك أن ثمة شخصاً يهتم بك، أو تعني له شيئاً، فيستشعر حرمانك من أمر تحبه، أو فقدانك لشيءٍ تتعلق به.

ولذلك، يجب أن لا ننظر إلى الذكريات من باب الحنين المجرد، والحزن على ماضٍ قد أفلت شمسُه ولن يعود، فهذا شعور ناقص غير متكامل، ولكن الأجل والأمنع أن ننظر إلى هذه الذكريات من زاوية أخرى تقودنا إلى الوفاء لمن شاركنا هذه المواقف، وقاسمنا فرحة الأمل، حتى ولو كانت تتمثل في لعب طفلٍ بين كثران رمل لم يبق منه إلا صورةٌ في الذهن، وعبرةٌ تتحرك كلما مررت به، فقداك إلى تذكُّر أشخاص ربما في كثير من الأحيان لا تعلم في أيِّ مكان حلُّوا، ولا إلى أيِّ جهة رحلوا، ولكنهم شاركوك بعض أيام حياتك، فكلما تصفَّحت أوراق تلك الأيام ظهروا لك وكأنهم يقولون: كن وفيّاً لأيامك، فتتحرك عبرةٌ في أحداقك وكأنها تناديك وتصرخ بك: «ما زلت طفلاً يلهو بين كثران الرمل!!».

## ستكبر يا صغيري

ها قد مرت الأيام..

لم أتصور أنها ستمر بهذه السرعة، وأن كثيرًا من المواقف والأحداث ستصبح حديث الذكريات، وشيئًا من الماضي، أحدث نفسي أو غيري بها قائلًا: «أتذكر ذلك الموقف؟ أتذكر ذلك الحدث الذي مرّ بنا؟».

ذكرياتٌ مقرونةٌ بالضحكات، وأحيانًا ممزوجة بالدموع والآهات.

كنا نحلم بأن نكون، وربما كنا ما أردنا، وربما بقي الحلم مجرد أمنيات لم

تزل باقية في المكان الذي حدثنا أنفسنا فيه بأننا سنكون وسنكون!!

كم أردنا أن نفعل ما نريد، ورجبنا أن نحصل على شيء ما، فتأتي الأوامر

الصارمة من الوالد بالمنع، فكنا نرى لصغر عقولنا أنه لا يريدُ إسعادنا، وننسى

أنه كان يكدحُ ليل نهار، ومنع نفسه من كثير من الملذات، وحبس نفسه عن كثيرٍ

من الأماكن والمجالس والعلاقات ليبيّن لنا مجددًا، ويخلف لنا ذكرًا طيبًا، أو

على الأقل عيشًا آمنًا وحياءً هادئةً.

كم كنا نرى تسلط الأخ الأكبر، ونفسر فعله قسوةً وغلظةً، وإذا جاء لبيّن لنا

أن ما فعله إنما كان بدافع المحبة، نتوهم أنه كاذب، وأنه يبغضنا ولا يريد لنا

الخير، بل يريد كسر شخصياتنا.



كم كانت تخرج منا العبارات الجارحة للوالد، للوالدة، للأخ الأكبر، للأخت الكبرى، تحت شعار: «أنت لا تحبني»، ونجعلهم في صراع من أجلنا حتى في مشاعرهم، بين أن يستمروا على نهجهم في التربية وبين ما يعانونه من الحزن الشديد، حيث لم يمكنهم من تفهم مشاعرهم.

ثمّ تمر الأيام تلو الأيام، وإذ بذلك الصغير يجني نجاحاته يوماً بعد يوم، ويعلم أنه لولا ذلك الوالد الذي كان يتصوره قاسياً، والأخ الأكبر الذي كان يراه متسلطاً، لم يصل إلى هذه الحياة المستقرة إلى حدّ كبير.

والأعجب من ذلك، أن ذلك الصغير الذي صار كبيراً، بدأ يربي أبناءه بنفس الطريقة التي كان يرفضها ويحاول التخلص من قيودها، ليحني أبناءه نجاح حياتهم، متحملاً في سبيل ذلك العبارات الجارحة، والاتهامات اللاذعة، ومع ذلك يستمر في سيره بغية أن يحقق لأبنائه العيش الرغد، ويساعدهم في تكوين الشخصية التي يستطيعون من خلالها أن يواجهوا صعوبة الحياة.

وأنت يا صغيري، لن تستطيع أن تفهم شعوري حتى تمضي بك الأيام، وتمر مسرعة بك كما مرت بأبيك، ثم تكبر يا صغيري، وتكون أباً، وتكونين أمّاً، وحينها ستعرف الشعور الذي كان يخالط أباك حينما كان يمنعك من كثيرٍ من الأمور التي ترى أنّ منعها تعنتٌ، فتكتشف بعد مضي السنين أن منعها كان من أجلك، وإذ بك تكرر مع أبنائك ذات الدور الذي كان يقوم به والدك.

ستكبر يا صغيري.. وتعرف أنك كنت بالنسبة لوالدك شريان قلبه، وبهجة أيامه، وأنه كان يمنعك من أشياء كثيرة خوفاً عليك، وأنت ترى أنه لا يتعلّق بها نفعٌ ولا ضرر.

فلما أخذت مكانه، وكُلِّفَت بمثل مهمته، إذ بك تفعل مثل صنيعه،  
وأحسست بمقدار ما كان يعانیه من حزن المشاعر ونيران العاطفة، حين كان  
يمنعك من أشياء كان قادرًا على تحقيقها، ولكن منعه الخوف عليك أن  
يحضرها إليك أو يأذن لك بمقاربتها.

ستكبر يا صغيري.. وتكون أبا، وتكونين أمًّا، وتعرف أن ذلك الشخص  
الذي كنت تتوهمه قاسيًا، والآخر الذي تراه متسلطًا، لم يفعل ذلك ليحني منك  
ربحًا ماديًا، أو حياةً فارهة، بل إنه قدّم لك جهده وسهره، وحرصه الذي أتعب  
قلبه، لتعيش هانئًا، ثمّ ولّى عنك ليعيش حياته التي حمل معها بقايا من تعب،  
وركامًا من هموم، دون أن يكلفك شيئًا، وقد فعل ما فعل لتعيش سعيدًا.

ستكبر يا صغيري.. وتعلم أن ذلك الشخص الذي عاش من أجلك -رغم  
ما فيه من النقص - شخصيةً لن تتكرر، ليس لأنه قدّم لك ما لا يستطيع أحد أن  
يقدمه، ولكن لأنه كان يحمل قلبًا يخاف عليك، وأنت كنت نبضه.

## كم عظيم أنت أيها الجبل

كلما نظرت إلى ذلك الجبل الشاهق، علمت مقدار ما يتصف به من القوة والثبات، رغم ما يعتريه من العوامل والأحداث المتعاقبة، التي تحاول أن تنحته حتى لا يبقى منه أثر، وإن لم يتحقق لها ما أملت؛ فلا تياس من أن تفتت بعضه، فصخرة من هنا، وحصاة من هناك، حتى تقوم فرحة بأنها حققت شيئاً، ومع ذلك تجد ذلك الجبل لا يزال شاهقاً؛ وكلما كثرت عليه الأحداث؛ كلما ازداد قوة وصلابة.

بل والعجب أن تراه يزداد بدلاً وعطاء، فتراه وقد تدفقت منه العيون والشلالات، يسقي الناس، وترتوي منه السهول، فإذ بها واحات خضراء، ورياض غناء.

لم يفكر أحد أن يبذل لذلك الجبل شيئاً، لأنهم يظنون أن كونه جبلاً قائماً، يعني أنه ليس بحاجة إلى شيء، فتراهم يسارعون لاستبداد خيراته، وتراه ثابتاً شامخاً.

ورغم الألم بسبب فقدته بعض أجزائه، وكثرة النحت في جسده، والطرق على قلبه، ما أن وما اشتكى، فكم هو عظيم ذلك الجبل.

وهكذا المرء المعطاء، هو كالجبل في شموخه وكبريائه، يعطي بلا حدود، ويبذل بلا قياس، لا ينتظر جزاء من أحد، ولا كلمة ثناء من آخر.

وربما يتألم من الداخل، ولكن يمنعه من الأنين أن ناسًا ينظرون إليه، ويرونه قدوةً، فيبتلع ألمه، لعلمه أنه بانهباره ستنهار أمةٌ، وتهوي مبادئ، أو لأنه يخاف شماتة شامت يتحين الفرص ويتربص به الدوائر، ليفرح بسقوطه، أو لأنه يعلم أن صرخته ستذهب أدراج الرياح لعدم وجود من يفهمه.

ومع ذلك تجده يعطي، ويبدل، ويلجأ إليه الناس فيجدون عنده المرهم الشافي، والدواء الناجح.

وربما يبیت على مدى الأيام يرقب أن يأتيه من يشعره أنه يحس بلوعات قلبه وتفتت فؤاده، ويراوده الحلم بذلك، لكن من يحس حقيقةً بالجبل؟  
والعجب أنه مع شموخه، تجد من يتسلقه ليصل إلى قمة رأسه فيطأها، وبالرغم من ذلك يبقى شاهقًا رفيعًا لا ينحني، ولا يمنعه ما رأى من قسوة أولئك أن يمنع الآخرين، فكم عظيمٌ أنت أيها الجبل.

## لا تُرهِمِ انكسارك

بينما كنت أقوم بإنجاز عملٍ يدوي في منزلي، وقفت طففتي ذات العامين محلقةً ببصرها نحوي، ثم قالت بصوتها الطفولي متكسرة الأحراف: «بابا لماذا تبكي؟».

حينها لم أكن أبكي، ولكنني بالفعل كنت مهمومًا لأمرٍ ألمَّ بي، فلما قالت مقولتها تلك، لم أتمالك نفسي حتى هرولتُ نحوها مسرعًا؛ فحملتها وضممتها إلى صدري، والعجيب أنها حين احتضنتها، لم تصنع ما يصنعه الأطفال في العادة؛ من محاولتهم التخلص من القيود؛ وإن كانت يد الأب الحانية، بل إنها بادلتني الشعور؛ واحتضنتني طويلاً، وكأنها تقول: أشعرُ بما تشعر به.

مرت ليلةٌ كاملة، وأنا أتفكر في ذلك الموقف متعجبًا، بل ولم تنزل حلاوته تلامس قلبي إلى وقت لاحق، وقد وقفت متسائلًا بعجب: هل يشعر الطفل الصغير بما لا يدركه الكبار؟!

ربما جمال الموقف كان لإحساسي بأن الطفل الصغير لا يخلق المشاعر، ولذلك كان شعوره أجمل؛ وموقفه أعذب.

ولا أخفي أن هذا الموقف جعلني أو من بما كنت ألقيه دائمًا في دروسي وكلماتي، وهو أن الواجب على الوالد أن لا يُري أبناءه الصغار - لا سيما

البنات - انكساره، سواء كان بسبب مشكلة كبرى أو همّ عارض، لأنهم إنما يرونه كالبناء المتماسك الذي لا يتهاوى، والملجأ الذي يلجأون إليه من حرّ الصيف وبرد الشتاء، فكيف إذا تززع البناء وانهارت جدرانها؟

أعترف أن دموع بعض الأطفال تشعرك بالحزن حتى لو لم يكن لذلك البكاء سبب، فكيف إذا كنت تشعر بحرارة دموعهم وهي على خدودهم؟ وأقر بأن لمعان بعض العيون ينبئك بما يسكن فيها من الألم، حتى يستدعي ذلك خوفك عليهم؛ لولا يقينك بأن الأمور كلّها بيد الله؛ وأنت لا تملك لهم ولا لنفسك ضرراً ولا نفعاً، لكن في نهاية المطاف؛ ورغماً عنك؛ تغشاك موجة من الهم؛ ترجو أن تزول سريعاً بسبب توكلك على خالقك.

مواقف تمرّ، وتجارب تتكرر، ربما كنت يوماً ما قد تكلمت عنها نظرياً، فإذا مرّت بك فانقلها إلى حيّز التطبيق، واستفد منها في مستقبل أيامك وحاضرها، وإذا لمست ذلك وتحسسته؛ فانتبه حين يمرُّ بك شيء من حوادث الحياة أن تتهاوى أمام أبنائك الصغار، لأنه مهما يمرُّ بهم من الشخصيات؛ تبقى أنت في نظرهم أفضل رجل في العالم، فلا تُرهّم انكسارك.

## اترك أثراً

في مراحل هذه الحياة، تمر بنا الصور والأحداث، ولا بد أن تترك فينا أثراً، وأياً كان نوع هذا الأثر، جميلاً كان أم مشوهاً، سعيداً كان أو حزيناً، فإنه بالتالي يمثل جزءاً من أيامنا، وذكرياتٍ تطوف بنا في هجيع الليل إذا عمّ الظلام واشتبكت النجوم، وأوى كل فردٍ من حولنا إلى حياته.

ولأجل ذلك فلا بد للمرء أن يسعى سعيًا حثيثاً ليشيّد بناءً متناسقاً، ويترك أثراً طيباً في حياة من حوله ومن يلتقون به، لأنه سيكون في هذه الحال جزءاً من حياتهم.

كم مرّ بنا من الأشخاص فتركوا فينا أثراً كان جزءاً من أنس حياتنا، فتعلقت نفوسنا وقلوبنا في أماكن مرورهم، وابتهجت وجوهنا ضاحكة لورود أسمائهم؛ لأنّ ما تركوه لم يكن من السهل نسيانه ولو كان أمراً صغيراً في نظر كثيرين؛ لأنه لن يستطيع أحدٌ أن يتصور مقدار أثرهم فيك إلا أنت؛ لأنك تعلم كيف كان مرورهم ومتى؟ فلعله كان في وقتٍ كنتَ أحوج ما تكون إلى من يسعدك بكلمة، وإذ بهم يضمّدون جراحك، ويوقفون نزيف قلبك.

وربما خلال عمرك الطويل لم تلتق بهم إلا تلك الساعة، ومع ذلك بقي ذلك الأثر إلى آخر العمر.

قد يرى الناس فلاناً قصير الفعل، وأنت تراه طويل القامة، لأنهم لم يحتاجوا إليه كما اضطرت أنت إليه، ولم ينالوا منه ما نلته، فكان بالنسبة إليهم الشخص العادي، في الوقت الذي تراه أنت أنه شخص عظيم، لن توفيه حقه مهما فعلت. دائماً إذا فتح الله بفضله لك باباً إلى الخير، فاربأ بنفسك أن تضعف همتك عن الدخول إلى ما يكون فيه سعادتك العظمى، وتميزك النادر، فإن أناساً قصرت همتهم عن فعلٍ يسير يقودهم إلى درجات المعالي، فلم يزالوا قابعين في دائرة الفلس، على الرغم من أنه لم يكن بينهم وبين السؤدد إلا أن يلجوا الباب، فاحذر أن تكون من هؤلاء، فإن كثيراً منهم لما كبر سنّه، وراجع دفتر أيامه، تمنى أن لو يعود به الزمن ليصحح مواضع الزلل، ولكنه طلب المستحيل، لأن عجلة الزمن لا تدور في الاتجاه المعاكس، وبلوغ المعالي فرصة لها أوان محدد، وتوقيت لا يتخلف، فإن لم يظفر بها المرء، فلتت من يديه انفلات الطائر الذي فُتح له الباب بعد حبس، فلا أمل في لقائه.

و أكثر ما يزيد هؤلاء حسرة وندامة؛ حينما يرون الناس وقد انصرفوا عنهم لأنهم لم يسعدوا منهم بأثر طيب حال قدرتهم، وحاجة من تأمل منهم خيراً، فكيف وقد صاروا لا يملكون شيئاً، ولا يستطيعون أن يتركوا أثراً لفوات ما بأيديهم؟!!

فينبغي للعاقل إذا مرّ في مراحل حياة الآخرين أن يترك فيها أثراً طيباً، من بذل جاه، وطلاقة وجه، وحلاوة لسان، واعتذارٍ في حال العجز، واعتراف في موضع التقصير.



ولأن قلوب الناس تختلف، وعقولهم تتفاوت، فإنهم قد يأتون إليك ولا يطمعون منك إلا بكلمة، فاحذر أن تكون بخيلاً بذلك، فلعل هذه الكلمة اليسيرة خيرٌ ساقه الله إليك في وقت لم يوفِّق إليها من يدعي العقل والكياسة، فتترك بسببها أثراً في شخصٍ محبط قد تصور أن الحياة توقفت عند هذه النقطة، فتجعلها له نقطة البداية.

## أشياء تخفى

من الخطأ أن يُحكم على الناس من خلال النظر إلى هيئاتهم، أو حسب ما ظهر من أحوالهم عند أول لقاء، ثمّ اتخاذ موقف مستمد من ذلك الحكم المجرّد؛ دون الالتفات إلى ما يخفى من أحوالهم، فبسبب ذلك يكون الحكم خطأ؛ لأنه أُسس على قواعد خاطئة.

تجد فلاناً من الناس، جميل المظهر، طيب العشرة، قريباً من الناس؛ استحوذ على قلوبهم، وفجأة إذ بك تراه كثير الصمت، قليل التبسم، قد انزوى إلى نفسه، فتسرع إلى إصدار حكمك الخاطيء أنه قد تغيّر أو تكبّر أو ملّ مصاحبة الناس، ولا تدري أو تدري بعد زمن أنه كان يحمل جبلاً من الهموم، وأثقالاً من الأحزان، التي خالطت أنفاسه، وغيّرت مجرى حياته، لكنه أثر الصمت؛ لعلمه أن الكلام لا يغيّر الحقائق، ولا يتخطى الأزمات.

طالما كنت أقول لجلسائي: إياك أن تنطلق بهجومك اللاذع على أحد أصحابك؛ وتسمي ذلك عتاباً، وهو يحمل في طياته كلّ معاني التجريح، فأنت ترى شخصاً شامخاً أمامك شموخ الأشجار، ووجهها ضاحكاً كتفتُّح الأزهار، ولكنه يحمل قلباً كئيباً بما تحمله هذه الكلمة من معنى، فتجيء عباراتك لتكلم جرحه فإذ به ينفجر نازفاً.

ولعلِّي لا آتي بجديد حين أقول: إننا مهما ادعينا الفهمَ والذكاء، فلن نصل إلى حقيقة الأمر إلا حين نكون في مثل موقف ذلك الإنسان، وهناك نعرف لماذا تبدلت أحواله الظاهرة، ونكتشف أننا وهو طالما حملنا في قلوبنا أشياء كبيرة، وأظهرنا على صفحات وجوهنا مشاعر مغايرة؛ تُنبئُ بالفرح والسرور، حتى جاءت اللحظة الحاسمة التي استحوذت فيها الهموم على القلوب، فإذ بنا نتغيَّر تدريجيًّا حتى يوافق الظاهر الباطن.

ولا يلزم أن تمر بنا التجربة الذاتية حتى نعرف ما يشعر به الآخرون وما يعانونه، بل يكفي أن نحسن الظن بأصحاب الأمس، وجلساء الأُنس، فإذا تغيَّروا أو شحَّت منابعم عن العطاء لفترة، قلنا: لعله جاءهم ما يشغلهم!.

## القلوب الكبيرة

مما يقوله الناس إذا أرادوا أن يقنعوا أحداً برأي ما: «كبر عقلك»، وبالرغم من صحة هذا التعبير فإنَّ الواقع يشهد أننا بحاجة إلى القلوب الكبيرة أكثر من حاجتنا إلى أيِّ شيءٍ آخر، نظراً للجفاف الذي حلَّ في حياتنا، فيحتاج المرء معه إلى قلبٍ يسع الآخرين، حتى يستطيع بعد ذلك أن يزرع خيراً ليحصد ثمراً يانعاً. الناس يحتاجون إلى قلبك الكبير، كحاجتك إلى قلوبهم العامرة باللين والرحمة، بل وفي أحيانٍ كثيرة إلى الشفقة.

قد يستحي بعض الناس من إظهار ضعفه أمام الآخرين، أو حتى نفسه، فيبدو متماسكاً حتى ينهار دفعةً واحدة، وعند ذلك يُخرج كلَّ ما ادَّخره من دمعٍ وأخفاه من عبارات.

القلوب الكبيرة تملك القلوب، وتترك أثراً في الذكريات، وتدفع إلى بلوغ الهدف في المستقبل، وربما ضاقت الأرض بمجموعة من البشر، فوسعهم قلبٌ نابض بالحنان، خفاقٌ بالود.

انظر في نفسك، كيف تريد أن يكون لك الناس، فكن أنت لهم كذلك. فحين لا تريد أن تكون ساحةً للتجارب، وعرضةً للصدمات، وتفرّباً لشحنات الغضب، ومضماراً للتكسب، فالناس كذلك لا يريدون.

وحين تريد أن يسقيك الناس من سلسيلِ الوفاء، ونبعِ الحنان، ويُسمعوك لطيفِ العبارة، ولينِ الكلام، فكن أنت معهم كذلك.

فمن أراد أن يلج إلى القلوب ويدخلها، لابد أن يملك المفاتيح التي تمكنه من ذلك، وإلا بقي طول عمره كالواقف أمام الحصن المنيع، يريد أن يدخل إليه ولا يهتدي إلى بوابته.

لا تظن أن دخولك إلى قلوب الناس وتلمس أحاسيسهم يشعرهم هم فقط بالسعادة، حينما يجدون الشخص الذي يحس بمعاناتهم، وربما يساعدهم على الوصول إلى المرفأ الآمن، فهذا وإن كان له جوانب كبيرة من الصحة، فإن السعيد حقاً والموفق صدقاً هو أنت، لأن دخولك إلى قلوبهم وامتلاكك لمفاتيحها يدل على أنك شخص مقبول، وقريب من الآخرين، وهذا يكفيك شهادة لنفسك بأنك ناجح أو مميز.

انظر حولك، ستجد أن مراكز كثيرة ومعاهد متعددة تقيم الدورات لتعليم الناس كيف يمتلكون قلوب الآخرين، ومع ذلك لا يتحقق هذا المطلوب إلا لقلة من الناس.

وكثير من الناس لم يدخل دورات تدريبية، ولا مراكز تأهيلية، لكنه فقط امتلك قلباً يحس بالآخرين بصدق، فكان هذا هو المفتاح الحقيقي الذي ملكه، وقد جعل الله له القبول بين الناس، حتى لويت له الأعناق، ولحظته العيون.

وفي هذه الأزمان يغفل الناس عن أعظم الأسباب الموصلة إلى القلوب، بالرغم من أنها من أسهل الأعمال وأقلها كلفة، وذلك من خلال التلطف

بالآخرين ومعاملتهم بالرحمة؛ لأنَّ الناس في هذا الزحام الشديد من الأعمال، وتسارع الأوقات وتتابعها، وتداخل الأعمال وكثرتها، قد ينسى الإنسان نفسه، ويحتاج المرء بعد هذا الجري الطويل الذي يقطع الأنفاس، إلى فترة راحة تتمثل في عبارة عذبة، أو كلمة طيبة تعكس مدى رحمة القائل وعظيم شفقتة، فيكون هذا بمثابة المفتاح المؤثر، وإنما تعظم المواقف ويكون لها عظيم الأثر في حياة الآخرين - وإن كانت صغيرة - إذا وافقت وقت الحاجة إليها، ولا ماست الواقع المحيط بها.

وتفكر في نفسك كم ثمنت بعض الكلمات لأشخاص تفوهوا بها، وتركت فيك أثراً عظيماً؛ لأنها قيلت لك في وقت كنت أنت أحوج ما تكون إليها، على أنها في حقيقة الحال كلمات أقل من عاديّة، لو قيلت لك في غير هذا الموقف لما تركت أثراً.

اجتهد دائماً أن تحقق الهدف الذي تأنس به، حين يفتح الناس لك قلوبهم، فيثون إليك همومهم، ويشتكون آلامهم، فعند ذلك ستعرف مدى السعادة التي وُفقت إليها وحصلت عليها؛ ليس استمتاعاً بهموم الآخرين؛ لأنه لا يخلو قلب من همّ أيّاً كان نوعه، ولكن لأنك ستعرف آنذاك أنك تملك قلباً كبيراً حوى كل هذه القلوب.

## أعاصير الحزن

لا أدري لماذا إذا عظم حزن المرء عجز عن التعبير، رغم ما يحمل بين جوانحه من العبارات المبعثرة التي يعجز عن ترتيبها.

قصيرة هذه الحياة، وطويلة تلك الأمنيات، فكيف تريد أن تظفر بكل ما تتمنى، والوقت دون الأمنيات؟

وقفتُ أحدث نفسي بهدفها الذي كانت تأمل بلوغه، وأملها الذي كانت تطلب الوصول إليه، فجاءتني: لقد ذهب أدراج الرياح، وطوته صفحات النسيان.

وتأملت، فوجدت أن العاقل هو الذي يجمع شتات فكره، ويتوجه نحو هدف واحد، ولا يلتفت إلى الأمانى الشاردة، ولا الأمنيات الكاذبة التي تعترض طريقه، فإذا به بعد مدة وقد حقق مراده ووصل إلى مرغوبه، في الوقت الذي أخفق كثير من الناس عن تحقيق أهدافهم؛ لانشغالهم بالحوادث العارضة التي بددت آمالهم وأثنت عزائمهم وشتتت أفكارهم؛ حتى فات الأوان وغرقوا في بحر الأمنيات، وقد قيل: «إنَّ المني رأسُ أموال المفاليس».

وكما أن الانشغال بالحوادث العارضة يصدُّ عن بلوغ المأمول، فكذلك الأحزان؛ فإنها إن استولت على قلب المرء ضيّقت عليه عيشه، وكدرت صفوه،

وجعلته مشتتاً يريد أن يجمع مشاعره، ويستجمع رباطة جأشه حتى يستطيع الانطلاق نحو آفاق النجاح، فلا يلوي على شيء من ذلك.

فالهوموم تحصر المرء في زاوية واحدة، وفي محيط واحد، لا تختلف بعض أطرافه عن بعض، فإذا به وقد صار في دائرة من الشتات لا يعرف لها نقطة بداية ولا انتهاء، كلما ظن أنه أنهى مشواره فإذا به يبدأ من جديد، ولو وحدهممه نحو شيء واحد، وهرب من نفسه إلى نفسه، وجمع فكره نحو هدف واحد بعيداً عن العوارض والأحداث والمنغصات، لوجدته بعد ذلك أكثر إنتاجاً، وأعظم ابتهاجاً، وعلى الرغم مما يتبقى معه من آثار ناتجة عن همّ قلبه، لكنه يمكن أن يحتوي ذلك، لأنه همّ واحد وليس مجموعة تؤدي إلى الشتات، وهذا هو الفرق بين الذين عانقوا السحاب، والذين دنت همتهم حتى التصقت بالتراب.

إن أهل العقل والظفر خاضوا مع همومهم حرباً سجلاً فهزموها، فلانت لهم الصعاب، وحازوا قدم السبق، وأحرزوا النجاح، وأما الآخرون فقد جلسوا ينتظرون الخلاص؛ وقد وضع أحدهم يده على خده وجلس ينتظر ذهاب الهمّ وزوال الغمّ، وإذ بهمّ في كل يوم يكبر حتى صارت هموماً مجتمعة؛ قطعت قلبه بالحسرات، وكست حياته ثوباً أسوداً من الآلام والمنغصات، وهذا هو الفرق بين الفريقين، وإلا فآين ذلك القلب الذي يخلو من الهموم والأحزان؟.

ولكن إذا كان المرء قد أحسن التدبير، هان أمامه كل عسير، وصار الهمّ أسيره بدلاً من أن يكون هو أسيراً للهموم والأحزان؛ التي تفتت عضده قبل أن يصل إلى ما كان يأمله من العيش السعيد، ويرجوه من الحياة الهائلة.



فإذا طرق الحزن بابك، فاجمع إليك فكرك، وتحصّن عنه بحصن منيع، ثمّ وجه إليه ضربة تشتته، قبل أن يجمع جنده، ويعاجلك برمية تطيش بعقلك، ثمّ يستولي عليك بقية عمرك، فلعلك إذا اعتدت عليه وألفته؛ لن ترغب أن يفارقك، حتى ولو عزم هو على الرحيل، فتبقى في عداد أهل الكآبة، الذين شحبت ألوانهم، واسودّت وجوههم، وضافت صدورهم، وعاشوا بنفوس منهزمة وقلوب ضعيفة؛ حين صار الهمُّ جزءاً من حياتهم كلما غاب افتقدوه.

إنك لن تعيش إلا مرة واحدة، فلا تفرط باتخاذ القرار في لحظة حاسمة، وإلا فستندم بعدها إلى آخر العمر.

إنك لن تعيش إلا مرة واحدة، فلا تُضع الفرصة، ولا تخطئ الهدف.

## اكتب نفسك

حين كنت أقرأ لبعض أهل الأدب والشعر وأنا صغير، كنت أتخيله قد جلس على طاولة، ووضع بجانبه فنجاناً من القهوة، ثم بدأ الكتابة على هذه الهيئة حتى أتمّها، ليخرج لنا بعد ذلك محصول كتابته، وكأنني كنت أرى أنه لم يستطع الكتابة والتدوين إلا بهذه الطريقة، طاولة.. فنجان قهوة.. غرفة مغلقة.. وسكون ليل.

فلما تقدمت بي الأيام أو تقدمت نحوها، وبدأت أدون كتاباتي، علمت أن الهيئة ليس لها علاقة بمضمون الكتابة، فالهيئة، وطريقة الجلوس، وكيفية الكتابة تكون للكاتب، أما القارئ فليس له إلا النتيجة، وقد يترك فيه كتابٌ أو مقالةٌ أعظم الأثر، وكان كاتبه قد خطّه في سيارته أو وهو مستلقٍ على فراشه، لكن لأن هذه الكلمات قد وافقت جواً عاطفياً وصدق شعور، صارت مؤثرة في نفس قارئها.

وعليه فإن من المناسب إذا وردت لك فكرة أن تعلم أنها صيدٌ إن لم تقتنصه فرّاً، وأفلست منه، فسارع إلى تدوينها كاملة حتى تبقى متماسكة على نسقٍ واحد، فقد تمرُّ بك بعض الكتابات لكاتب واحد، ومع ذلك يأخذك الاستغراب نظراً لما فيها من التفاوت بين الجمل، حتى تشك أنها لكاتب واحد، وسبب

ذلك تغيّر المكان، والتنقل بين الأمكنة، فتختلف المشاعر بين مكان وآخر، وتتغيّر نفسية الكاتب، فينعكس ذلك على الكتابة.

لماذا تجد بعض القصائد وقد عاشت مبتورة الأبيات، أو لم يُكْتَب لها التمام؟

ربما لأن صاحبها قد بدأها في موضع معيّن، ثم انتقل إلى مكان آخر، تغيّرت معه المشاعر، وتحولت فيه الأحاسيس، فلم يستطع أن يكملها على نفس السياق، فتركها معلقة بين النقص والتمام، يطمع أن يتوفر له نفس الجو الذي بدأ به كتابتها، فلما لم يتوفّر بقيت على حالها، بل ربما بقيت بيتًا يتيّمًا، أو شرطًا حائرًا.

ولقد مرّ بي مثل هذا الحال مرات عديدة، فقد أشرع في كتابة مقالةٍ أو أبياتٍ قصيدة، ثم يأتيني ما يقطعني عنها فتبقى سنوات على حالها تنتظر أن تتم، وأنا لذلك أشد لهفًا، فأعجز عن إتمامها، فأنظر إليها بأسى، لإحساسي بأنها لو تمت لكان لها أثرٌ جميل، إن لم يكن عند من يقرأها، فعلى الأقل عندي.

ولذا يجب أن نستثمر الفرصة إذا جاءت إلينا، ولا نتركها تفوت بسهولة، فإنها هدية بلا كلفة، وربما إذا ذهبَت لن تعود، فيصعب تعويضها، ويزداد عليها الندم؛ لأن الشعور الذي دفع إلى الإقدام عليها شعور صادق سينعكس على أحرفها ومبانيها.

كنت دائمًا أوصي من أعرف أن يعتاد الكتابة، وأن يجعلها من مهامّ حياته، حتى لو كانت في بداية أمرها مبعثرة، لأنها حتمًا ستكون مشاعر حقيقية صادقة،

سيحتاج يوماً من الأيام أن يشبع فراغ قلبه من خلال النظر فيها، والأجمل أن يسعى إلى ترتيبها، ويقدمها هدية لغيره، فيقرأها مبتهجاً بها، وربما يحدث نفسه قائلاً: «وجدتُ من يشعر بي»، وسبب ذلك أن الكتابة لم تكن من نسج الخيال أو لأجل الكتابة فقط، بل إنها كتبت في حالٍ واقعي صادق، ولذلك لما لاقى قلباً خالياً حلّت به، وكان لها عظيم الأثر.

## التجارب

التجارب تعلم الإنسان، وتصلق المواهب، ولا شيء أنفع للإنسان من التجارب التي تمرُّ أمامه، أو يكون جزءًا منها.

وإن كنت متعجبًا، فليكبر عجبك من شخصٍ يكون جزءًا من معاناةٍ مرت به على أيدي الآخرين، فلما دار به الزمان فإذ به يسقيها غيره بكأسٍ من جحود.

رأيت ابنًا كان يشتكي من والده ليل نهار، ويتذمر من طريقة معاملته معه، قسوة، وغلظة، وظلمًا، وشحًا في المشاعر والمال، فلما مرت الأيام ودار الزمان دورته وأصبح ذلك الابن في مقام الوالد، إذ به يكرر مع أولاده فعلَ والده الذي كان يشكو منه بالأمس، ويسقيهم ما كان يذوقه من الحرمان والألم، وكأنه ينتقم من والده عن طريق أولاده الضعفاء، فحرمهم العطف والحنان، وقتل مشاعرهم وأحاسيسهم، وكانهم جماد لا يعون ولا يشعرون، فما أغنت عنه التجربة شيئًا، ليس لأن التجارب لا تعلم، ولكن لأنها صادفت قلبًا غافلًا، وعقلًا مضطربًا.

يحدث أحيانًا أن يشتكي إليّ ولد ظلم أبيه، أو تشتكي إليّ امرأة من جفاء والدتها وجفاف علاقتها معها، أو غير ذلك، فكنت دائمًا أبدأ عبارتي بقولي: احمد الله أن جعلك في هذا المقام حتى تأخذ منه درسًا، وتستفيد منه عبرة، لأجل أن لا تكرر هذا الفعل مع أولادك، فهذا درس قد جاءك بالمجان، فلا يعرف مقدار الألم إلا من ذاقه.

لا أعني أن هذه التجربة هينة أو مفيدة من كل جانب، بل الحقيقة أنها قاسية ومؤلمة، لكن بمقدار الألم الذي تسبب به غيرنا لنا، سنجد حلاوة فعلنا إذا ما سقينا غيرنا عكسه، وجنبناه ما ذقناه في سالف الأيام.

وعلى الرغم من ذلك أرى من المناسب أن يكتف الإنسان مشاعره في داخله، ولا يتحدث بها أمام أبنائه، بل عليه أن يجتهد في إسعادهم دون التعرض إلى والديه بكلمة نقدٍ أو تنقيص، فلعل الأيام ستطول به، ويجد لهم عذراً فيما فعلوه، وربما لا يجد عذراً، ولكن كبار النفوس هم الذين يتحملون الألم، ويجعلونه دافعاً لأن يعيشوا عيشة كاملة أو قريبة من الكمال.

ربما أن بعض الناس يظلم نفسه في طريقة معاملته مع الآخرين، فهذا متسلط في عمل، وهذا متجاوز في علاقة اجتماعية، وغير ذلك مما تختلف فيه نفوس الناس، لكن الموفق هو من جعل هذه المرحلة الماضية دافعاً له إلى النجاح في المستقبل.

لا تتوقف كثيراً عند لماذا فعلوا؟ فهذا السؤال سيبقيك واقفاً في مقامك دون حراك، وهذا هو الفشل، بل ليكن سؤالك: ماذا سأفعل اليوم؟ وماذا سأحصد غداً؟

لا نكن مثاليين أكثر من اللازم، لكن حتى نعيش سعداء إلى حد كبير يجب أن نكون واقعيين، فإذا مرَّ بك أمرٌ وأردت أن تتجاوزه فعليك أن تسلي نفسك بقولك: هذا هو الواقع.

نعم، الواجب علينا أن نطمح إلى واقع جميل، و حياة سعيدة، و عيش هانئ ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، لكن إذا لم يتحقق فسلّ نفسك محدثاً إياها: «هذه هي الحياة».

وعلى الرغم من ذلك؛ فإياك إن مرّت بك تجربة من تجارب الحياة أن تبدي عجزك حتى من الاستفادة منها، فإن ذلك منتهى العجز والتقصير.

## الحنين إلى الماضي

الحنين إلى الماضي شعور مركب في كثير من البشر، وقد يكون علامة فارقة يتميز بها من فازوا بهذه الخصلة، وأقول: فازوا ولم أقل اتصفوا؛ لعلمي أن هذه الصفة مضمرة يتسابق فيه الكثير، على الرغم مما يكون في الجانب الآخر من أناس لا تمثّل لهم هذه المشاعر أيّ اعتبار.

الحنين إلى الماضي يشعر به المرء إذا بدأ السنُّ يتقدم به، فيتذكر مرابع الصبا، وضحكات الطفولة، وأصدقاء الصدق، قبل أن يُعرَف الكُرُّ والفُرُّ، ويُمْتَهَن المكر.

ولا يقف هذا الحنين عند هذا الحد، بل هو علامة على الوفاء لمراحل اقترنت في حياته يتمنى أن لو تعود إليه، ولكن لعلمه أنها لن تعود تجده يزداد بها تعلقًا.

الأشخاص، الأحداث، لهم أثرٌ في حياة الناس، بل وحتى الأسماء، فهناك اسم اقترن بذكرى مفرحة، واسم اقترن بموقف بائس أو حزين.

ليست المسألة شعورًا فقط، بل إنَّ الحنين دليل على رقة القلوب، ولين الطباع، والشوق إلى صفات جميلة بدأت تُنتقص أو تتلاشى، بسبب المحيط الذي نعيش فيه ويحتضننا رغماً عنّا.



كانت العرب تقول: إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر كيف تحنُّه إلى أوطانه، وتشوُّقه إلى إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه. قمة الوفاء، وغاية النبل والرقّة.

ألا تعتقد أن الشوق إلى هذه الأشياء، كان بسبب ما اقترن بها من مواقف وأحداث، إذا لاحت أمام ناظر المرء سحبت معها سيلاً من الذكريات، وانفجر معها ينابيع من مشاعر الوفاء، تغذي القلوب، وتروي الظمأ؟!.

ربما لن يستشعر المرء هذا الحنين ما دام باقيًا في نفس الدائرة، ويعيش في نفس الجيل، فإذا تخطّى المراحل نحو حقبة أخرى، حنَّ لما سبق وتمنّى أن لو كان في ذلك الزمن الذي مرّ وكأنه لحظات.

ربما لن تستشعر أن هذا الشعور صفة نادرة، وسبق حقيقي، إلا إذا تقدم العمر، فتعلم حين ذاك أنه علامة من علامات الحياة، فالمرء الموفق هو الذي إذا كبر سنُّه، رقَّ قلبه، وبكى على ذنبه، واشتعل الحنين في قلبه، فتجده يراجع الأيام السابقة، فيُصلح ما فسد، ويصل ما انقطع، ويحاول أن يزرع ذكرى قبل رحيله.

إنَّ الجرح الذي لا دواء له، هو أن يعيش المرء صراعاً بين شعور دفين في قلبه يعلم أنه هو الصواب، فيكتمه رغماً عنه خوفاً من انكساره، أو لتوهّمه أن هذا نوع من الضعف، فلا يزال يكتم أنفاس مشاعره حتى يتكلّف طبعاً لم يتمنّه بداية، لكن لم يلبث حتى صار له صفة بارزة، وخلقاً لم يستطع التخلص منه؛

فإذ به قد وقف وقفة المضطرب، فلا هو بالذي فاز بمعانقة مشاعره وأنس ذكرياته، ولا هو بالذي مضى في طريقه ثابتاً على ما خطه لنفسه.  
الحنين إلى الماضي ليس ضعفاً، إياك أن تتصور ذلك، بل يكفيك حين تذكره أن تعلم أن لك ماضياً جعلك تصل إلى المستقبل، في الوقت الذي يعاني الكثير من أنهم ليس لهم حاضرٌ يستمتعون به، ولا ماضٍ جميل يخفف عنهم ضيق هذا الواقع الذي يعيشون فيه محبطين.

فإذا أردت أن تعيش غايةً من السعادة، ففجر مشاعرك، وحنّ إلى سالف أيامك، وذكريات طفولتك، وخذ منها ذلك النقاء لتجعله سمةً لك حين تقدّم سنك، لتُحسن إلى من حولك فتنال المجد، ويرق قلبك فتستشعر حقيقةً أنك إنسان.

## بين طريقين

أصعب ما على المرء أن يكون بين طريقين، ويقف أمام اختيارين، فلا يدري أيّ طريق يسلك؛ ولا أيّ رأي يختار.

كان يُدلي إليّ بعضُ الناس بما يعانیه من المشاكل؛ وما يكابده من الهموم، وكنتُ إذا رأيتُ أنّ مشكلته لا حلَّ لها؛ وأنَّ استمراره فيها يكبّده الخسائر الجسيمة، المتمثلة في ضعف صحته وخوار قوّته، كنت أقول له كلمتي التي طرفتُ بها أذن غير واحد: «الإنسان لن يعيش إلا مرة واحدة»، وكنت أقصد بها: احزم رأيك وقوِّ عزمك لاختيار أحد الخيارات، مهما كان فيه من الألم والسلبيات.

ولأنني كغيري من البشر، تقع لي بعض المشكلات؛ وتمرُّ بي بعض الظروف، كنت أقلّب طرفي بين تلك الحلول التي كنت أضعها لغيري، حتى أصل إلى مقولتي: «الإنسان لن يعيش إلا مرة واحدة»، فلا أستطيع الاختيار؛ ولا الإقدام على أيّ خيار؛ لوجود كثيرٍ من الموانع التي تحول دون الوصول إلى هذه النتيجة.

وها هنا علمت موقناً أن الواقع النظري يختلف عن الواقع العملي، وزال استغرابي حين كنت أرى من أدلّيت له بتلك القاعدة العريضة ولم يزل يدور في

فلك مشكلته، ويترنح بسبب ما يحمله من الأثقال، ثم انتبهت إلى الحقيقة، وهي أنه لربما لمس من الواقع ما لمست؛ ووجد من الموانع ما وجدت، فوقف في مكانه يفكر ويفكر، ولا يدري أين سيقف به تفكيره.

وتعلّمت من هذه التجربة التماس العذر للآخرين، فطالما طالبنا الناس باتخاذ موقفٍ في قضيةٍ ما؛ لأنّ لنا متعلّقًا بها من جهةٍ أو أخرى، وربما عاتبناهم على تأخرهم بحسم الموقف، فلما صرنا في نفس الدائرة، علمنا أنّ هناك أشياءً أخرى لم تظهر على الساحة، ولم تبدُ للعيان.

وهذا لا يعني أن التنظير خطأ، ولكن حين النظر إلى الواقع تختلف أحوال الناس بالنسبة إلى الأخذ به أو ردّه، ولو لم تستفد من حوضٍ غمار هذه التجربة إلا التماس العذر للآخرين حين يتأخرون في قبول رأيك، لكان كافيًا، فكيف بك إذا ارتقيت بأحاسيسك حتى تستشعر حقيقة مقدار ما يعانونه من الألم؟!.

## رسالة إلى مغترب

لا أدري لماذا وأنت تودّع صاحبًا كان ملازمًا لك في بعض أيام حياتك، فكأنك تتيقن إن لم يحصل الفراق بالموت؛ فلا بدّ من فراقٍ في هذه الحياة. ففلان ودّع ابناً، وذلك ودّع قريباً، والآخر ودّع صديقاً على أمل أن يتجدد اللقاء، وقد لا يتجدد؛ لكن على الأقل يبقى مجرد أمل.

وما أصعبه أن يعود المرء ليجد من انتظره وقد رحل عن هذه الدنيا، أو أن يحلّ بالمسافر الأجل، فلم يجنّ الحاضر سوى الانتظار.

ودّع فلان ابنه الشاب ليغترب في بلدٍ بعيد من أجل الدراسة، وفارقه وكأنه يفارق روحه التي بين أضلعه، ولم يزل يذرف تلك الدموع المتتابعة طمعاً أن تطفئ لهيب فؤاده؛ حتى رحل وكأنه استودعه قلبه.

يا راحلاً وجميل الصبر يتبعه      هل من سبيل إلى لقياك يتفق  
ما أنصفتك دموعي وهي داميةٌ      ولا وفي لك قلبي وهو يحترق  
وقبل أن يمضي أودعه رسالةً يعبر فيها عن مكنون نفسه وفيض مشاعره،  
وإذ فيها:

بني: عشت سنينَ عمرك في كنفِي، ما كنت أحسب أننا سنفترق ونحن على قيد الحياة، كنت أراك أمام عيني تكبر يوماً بعد يوم، وكأنني أرى فيك نفسي،

وأنتظر لحظة تحقيق أحلامي من خلالك، لا لأجمع عن طريقك مجداً، أو أجنبي منك مالأ، ولكن لأنك نفسي، بل قل: روحي.

بني: إذا تغرّبت بك البلدان، ونأت بك الديار، فاذكر أباً يذكرك مع إشراقة كل شمس، وأمّا تنام على جميل ذكراك، فلا تنقطع عنهم مشتغلاً بذات نفسك، فلربما تحركت أوراق الشجر فتذكّرهما بحركات طفولتك، وندي صوتك.

هنا كل شيء يذكرك بك، دارك التي تحن إليك جدرانها، ألعابك التي ما زلت أحتفظ بها، كتبك التي لم أزل أجمعها منذ بداية دراستك لتكون ذكرى جميلة. ما زلت أنت هنا، ولم تزل في مخيلتي ذلك الطفل الذي سرعان ما مرّت الأزمان حتى صار رجلاً يشق طريقه ليحقق طموحه.

بني: أنت مسافر لتحصل على علم، فإياك أن تخسر نفسك، فتعود لتحمل فكراً منحرفاً يزيّنه لك بعض المفتونين، ويزخرفونه كذباً بزخرف الحضارة والتقدم، فإنك إن فعلت ذلك كنت خنجراً مسموماً في قلب مجتمعك، واعلم أنّ الفوز الحقيقي في نهاية الأمر هو احترامك لنفسك.

أنت فتى في مقتبل العمر، وشاب يافع، ستنتفع على مجتمع بالنسبة لك جديد في كل شيء، فلا تنخدع بالأضواء، ولا تنبهر بشعاع سرعان ما ينقطع، واعلم أنّ الظفر هو ما ستحصل عليه أنت، وما ستجنيه يدك في الحقيقة، وليس ما يقوله الناس وينسبونه إليك ولم يكن لك منه شيء.

بني: كن وفياً لإخوانك وأخواتك، الذين صاحبوك على مدى عمرك أو أعمارهم، فهم ما زالوا يترقبون قدومك، ويرددون اسمك، ويدونون مواعيد

قدومك إليهم، فاحذر أن تلقاهم بشعورٍ بارد، أو عاطفةٍ كأنك مرغّمٌ عليها، فإنّ ذلك يضعف الروابط ويزرع الوحشة.

وعليك بالوفاء لأصدقائك الذين يحبّون لك الخير، ويفرحون لتقدمك، ويشتاقون لأيامك، لا سيّما من لازمك ولازمته منهم حتى لحظة الفراق، فإنّ الوفاء من شيم الكرام، فلا تنقطع عنهم، وكن معهم كما كنت في سالف عهدك.

بني: وإذا حقق الله لك المطلوب، ورجعت إلى بلدك، فكن عنصراً بناءً في مجتمعك، واحذر من أفكار السوء الهدامة، وعليك برعاية الفضيلة، فإنّ الناس أحوج ما يكونون إلى أخلاق الخير.

وعليك بالتواضع للناس والتودد إليهم، ومهما حصلت عليه من شهادة فإياك والغرور، واعلم أنّ الناس في هذا الزمان بعضهم عن بعضٍ غني، ومن لم يكسبهم بأخلاقه ولينه وقربه فإنهم لن يبالوا به.

بني: اختلطت المشاعر، واضطربت العبارات، فما عدت أدري ماذا أكتب وماذا أذر، ولكن يُعني عن كثير العبارات وسيل الكلمات؛ قلني: «إني أحبك».

## صديق لا يملك

تأملت في الأصدقاء، فوجدت أن أقربهم بالنسبة إليّ «الورق»، وقد كنت أوصي كلّ من درّسته، أو كان بيني وبينه علاقة أن يتخذ هذا النوع صديقاً، وأن يهتم به غاية الاهتمام، لأن فيه من المزايا ما لا يجتمع في غيره من الأصدقاء، فهو الذي يتسع صدره لأطروحاتك، ويتلقاها دون ضجر، وهو الذي يستمع إليك حينما تتحدث، ولا يقاطعك حينما تسترسل في الكلام، بل ينصت إليك دون نفس، ولا يشمت بك إذا أظهرت عجزك عن شيء، أو ذرّفت دموعك لأجل شيء.

وهو الوحيد الذي يمكنك أن تبدي له أسرارك فلا يفشيها، وتستودعه عباراتك فيحفظها.

وإذا طال بك الزمن وأردت مؤنساً، قلبته فوجدت فيه جميل الذكريات التي تصاحبها ابتسامتك، وحزن الذكريات التي ربما تدفعك إلى الأمام.

انظر في نفسك، كم حدث أن اجتمعت في داخلك بواعث الألم، حتى تشكلت عبارات خفية، ودموعاً تتمنى أن تنهمر، فاستحييت أن تبثها لأصدقاء الحياة، فإذا بصديقك الوفي يدعوك أن تبث وجدك بين ثناياه، لتشعر بعدها بالراحة.



في حياتنا قد نأتي إلى صديق من أجل أن نحدثه عن همومنا، متاعبنا، آمالنا، آلامنا، فإذا به قد جاء ما يشغله عن سماع ذلك منا، إلا هذا الصديق، كلما أردت أن تحدثه عن شيءٍ من ذلك، لم يشغله شيء عنك.

قد نرتاح لشخصٍ ما، نريد أن نحدثه عما نحسّ به، وإذا به يتمنى أن نستمع إليه أكثر من استماعه منا، أمّا ذلك الصديق فليس فيه من المعاناة والآلام والآمال إلا ما تخطه أنت فيه وترسمه عليه.

مما يميّز هذا الصديق أنك تحدث نفسك عنك، وتشكو إليك منك، وتظهر سلبياتك، وتفرح بنجاحك، وترسم أهدافك، فتصل من خلاله إلى قلبك الذي لن يستطيع أحدٌ أن يملأه بالعاطفة إلا أنت، وبالطريقة التي تعرفها جيداً دون مكابرة، ودون أن يقطع عليك أحدٌ الطريق باقتراح بعيد أو فهم محبط، أو عبارات تكسر الهمة.

ربما لن يعرف قدر هذا الصديق حقاً إلا من امتهن الكتابة، حتى لو كانت مبعثرة، وأعظم الدلائل على ذلك أنه حين لا يفهمك أحدٌ، بدأت تسجل شعورك على الورق وكأنك تخاطب الآخرين بقولك: «هذا ما أعنيه».

الواقع محبط، والناس بين مشغول بما أنت مشغول به، أو آخر لا يعنيه أن يفهم ما تقول، بل ويبخل أن يبذل من وقته ولو لحظات ليستمع إلى ما تقول فضلاً عن أن يفهمه، وآخر تأتيه وأنت مقبلٌ بكل ما فيك لتسجل له موقفاً عندك أنه استمع إليك في لحظة كنت تبحث عمّن يسمعك، فإذا برده الذي يُمثّل لك

صدمة وإحباطاً وبعثرة لا يمكن لَمَلَمَتُهَا، وعند ذلك توقن أنه لا أوفى لك ولا أصدق صاحباً من الورق.

رأيت بعض الناس قد يلجأ إلى شخص لا يعرفه، ربما كان طبيياً أو مستشاراً أو غير ذلك، ليفتح له قلبه، ويتكلم في كل شيء بأريحية ودون قيود، وربما سالت عبارته وأبدى انكساره، وأظهر مكنونه، وإنما فعل ذلك لأن هذا الأجنبي لا يعرفه، فالمعرفة تُبقي ضوابط الرسمية ومخافة الصدمة بأن لا يبالي بإحساسه، فلجأ إلى ذلك الأجنبي، ونظير هذا الشخص الأجنبي صديقنا الورق، فهو الوحيد الذي يمكنك أن تزيل معه مشاعر الكلفة، والحواجز المانعة.

حقيقة لا أدري ما أقول عن هذا الصديق، جرّب أن تصاحبه أيام عمرك، بثه مشاعرك المبعثرة، فسيأتي زمنٌ وترتّبها وتكون منطلقاً لك نحو الهدف، ارسّم معه أحلامك، سجل به آلامك، خطط به مستقبلك، وعلى فرض أنك لم تحقق شيئاً من ذلك، فيكفي أنك وجدت الصديق الذي يستمع إليك بكل ما فيه، وهذا بحدّ ذاته مكسب لا يستهان به بحال من الأحوال.

## ضجيج لا بد منه

هل جربت أن يسافر أبناؤك إلى جهة ما؛ ثم تدخل بيتك وقد خلا منهم؛  
فيزعجك هدوؤه، وتشتاق إلى شيء من ضجيج؟.

لطالما شكونا نحن معاشر الآباء من إزعاج أبنائنا، فنضيق ذرعًا ببيكاء  
الصغير وصراخ الكبير، فإذا غابوا عن أنظارنا؛ فإذا بالمسامع تشتاق إلى دوي  
أصواتهم، وتحن الأنظار إلى خيال رسومهم، ونوقن هنالك أن جمال المنزل  
حين بدا جميلاً إنما كان مستمدًا من وجودهم فيه.

لا تزال تقلب عينيك في زوايا المنزل مستحضرًا شريط الذكريات؛ فعلى  
هذه الأريكة جلست فلانة، وعلى هذا الكرسي صعد فلان، وهنا أظهرت فلانة  
مواهب الصغار فازداد المنزل فرحًا وابتهاجًا، هنا سقط فلان، هنا لعب فلان،  
وهنا غلبني النوم فجاءت طفلي الصغيرة ذات الأربعة أعوام بقطعة قماش  
خفيفة -تظنها براءة الطفولة أنها تجلب الدفء- فغطتني بها.

ما أجمل الحياة بهم.

أرأيت جسدًا تعيش معه سعادة الأيام، فإذا فارقتَه عشت على ذكرياته  
لتستجلب شيئًا من حنان؟

قرأت قصيدة لأحد الشعراء يحكي تفرُّق أبنائه في البلدان، بعد اجتماع  
الأرواح والأبدان، وكنت أستعذب تلك القصيدة، فلما قرأتها لحظة فراقني

لأبنائي وتباعد الأجساد بسبب السفر، فإذا بالقصيدة أعذب؛ وعباراتها من النفس أقرب.

فهذا رجل يحكي اجتماعه بأبنائه، مع تلاصق الأرواح وتمازج القلوب، فلما تفرقوا فإذا به يستنطق حديث الذكريات..

أين التدارسُ شابه اللعِبُ؟	أين الضجيجُ العذبُ والشَّعْبُ
أين الدُّمى في الأرض والكتبُ؟	أين الطفولةُ في توقُّدها
أين التشاكي ما له سببُ؟	أين التشاكسُ دونما غرضُ
وقتِ معًا، والحزنُ والطربُ؟	أين التباكي والتضحكُ في
شغفًا إذا أكلوا وإن شربوا؟	أين التسابقُ في مجاورتي
والقربِ مني حيثما انقلبوا	يتزاحمون على مجالستي
ووعيدهم: بابا إذا غضبوا	فنشيدهم: بابا إذا فرحوا
ونجيتهم: بابا إذا اقتربوا	وهتافهم: بابا إذا ابتعدوا
واليوم، ويح اليوم قد ذهبوا	بالأمس كانوا ملء منزلنا
أثقاله في الدار إذ غربوا	وكانما الصمتُ الذي هبطت
في القلب، ما شطُّوا وما قُربوا	ذهبوا أجل ذهبوا، ومسكنهم
نفسى وقد سكنوا، وقد وثبوا	إني أراهم أينما التفتتُ
في الدار ليس ينالهم نصبُ	وأحسُّ في خَلدي تلاعبهم
ودموعَ حرقتهم إذا غلبوا	وبريقَ أعينهم إذا ظفروا
وبكلِّ زاويةٍ لهم صخبُ	في كلِّ ركنٍ منهم أثرُ

إني أراهم حيثُما اتجهت  
دمعي الذي كتمته جلدًا  
حتى إذا ساروا وقد نزعوا  
ألفيتني كالطفل عاطفةً  
قد يعجب العذال من رجلٍ  
هيهات ما كلُّ البكا خورٌ  
عيني كأسرابِ القطا سربوا  
لَمَّا تباكوا عندما ركبوا  
من أضلعي قلبًا بهم يجبُ  
فإذا به كالغيث ينسكبُ  
يبكي، ولولم أبكٍ فالعجبُ  
إني -وبي عزمُ الرجال -أبُ

لا أجمل من هذا الوصف، ولا أدق من ذلكم التصوير.

وعلى قدر ما تكون حياتك لأولادك، تجد ألمَ الفقدِ وحرارةَ الفراق، ولكن  
يهوئُها أملُ اللقاء وجميلُ الذكريات.

وحتى يكون لك في قلوبهم مثل ما لهم في قلبك؛ تميّز بعطائك؛ وكن كريمًا  
بمشاعرك وأحاسيسك، واملأ قلوبهم بالعواطف الرقيقة الصادقة حين يكونون  
في ضيافتك، فإنك عما قريب ستكون في ضيافتهم وتحتاج إلى أن يغذوك بمثل  
ما كانوا يتمنون أن يجدوه عندك حال عيشهم في كنفك وتحت يدك، وإنما يتميز  
الناس بعظيم وفائهم؛ وكبير عطائهم.

ولا أعجب من رجل يعيش مع أبنائه حياة جامدة؛ يغذوهم من خلالها  
قسوة الطباع؛ حتى إذا تقدم عمره، ومضت أيامه، إذ به يطالبهم باحتضانه  
عاطفيًا، وقد كان بخيالًا بمشاعره، فإذا لم يجد ذلك مال إلى الأنين والشكوى،  
ولو أنصف لوجد أن ما كسبه هو ناتج فعله، وصنيعة يده، وحصاد سعيه.

ولا أعني أن ذلك مبررٌ للعقوق، ولكن سقته لبيان أن الحياة سلف ودين،  
والإنصاف يدعوك أن لا تطلب من الناس ما قصرت عن تقديمه لهم؛ وليس ثمة  
ما يمنعك، وهذا مما يدعوك إلى الاجتهاد في البذل والعطاء حال كونك تملك  
ذلك.

## طمع النفس

من أعجب الأمور أن تطمع نفس المرء إلى بلوغ شيء تعلم أنه بالنسبة إليها صعب نواله، وإنما مثل الذي يطمع بشيء بعيد حتى عن مستوى إدراكه، كمثل الذي يركض إلى غير نقطة نهاية.

هكذا نحن بني البشر، لا نزال نطمع ونطمع، بل ويقتلنا سُكر الطمع حتى نفيق وليس في أيدينا شيء.

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى **فإن أُطِمِعَتْ تَأَقَّتْ وَإِلَّا تَسَلَّتْ**  
آهٍ لحلم تعلق به شخص حتى كدَّر حياته، وذهب بسببه صفو أيامه، فلم يستطع نسيانه ولم يقدر على تناوله، فعاش بين رحي الفقد والتمني.

كم حدثت نفسي أنه لو أقنع المرء نفسه بواقعه؛ لارتاحت نفسه إلى حد بعيد، ولو درَّب نفسه على قَطْع التفكير بالمستحيل لانتظمت حياته، وإلا فكل امرئٍ عنده أمنية كبيرة، لكن هل تفكر يوماً هل يمكن أن يصل إلى هذه الأمنية أم أن ذلك محض خيال؟.

نعم، طمع النفس ليس له حدٌّ؛ ولكن علم المرء بأن ذلك الطمع ليس وراءه إلا ألم الفقد ربما يجعله يقف على بُعد مسافة من اقتحام المجهول.

حاولت أن أقنع نفسي بأن تتجنب سلوك طريق الطمع، فأبت، وكأنها تقول: الطمع قرين النفس، فلا تتفحَّم المستحيل!.



## غداً سيكون أفضل

كم هو جميل أن تردّد دائماً عبارة: غداً سيكون أفضل، حتى تعيش متفائلاً، ولأجل أن تكون هذه العبارة دافعاً لك إلى الصبر على ما تعانیه من الهموم، وتكابده من التعب والأواء.

أعلل النفس بالأمال أرقبها ما أضيّق العيش لولا فسحة الأمل، وهذه طبيعة النفس البشرية إذا فاتها شيءٌ تشاغلت عن فواته بالتسلي، وقطعت طمعها عن التثوّف إلى غيره.

نتجاوز المراحل إلى حيث نجد الراحة؛ أو نطمع أن نجدها في وقت مليء بالهموم والأحزان والمنغصات؛ حتى لا تكاد تجد فرحةً إلا ومشوبة بشيء من الحزن، ولا تلبث أن تتذوق طعم السعادة إلا مخلوطاً بشيء من الألم.

نقلب صفحات الماضي لتتجاوز أحزانه في الحاضر، وقد يستمر الحال بسلام حتى بلوغ الهدف، وقد نجد أن صفحات ذلك الماضي قد تشكلت مستقبلاً بانتظار قدومنا إليه، ليصبح حاضراً يصعب أن نتخلص منه، فكيف إذا كان هذا الواقع لم يزل مرافقاً لك طوال حياتك مرافقة الظل الذي لا تكاد تهرب منه إلا حين يختفي الضوء، فتنزوي إلى ذات نفسك لعلك تتخلص من ذلك الواقع الحقيقي بالهروب إلى واقع ليس موجوداً على الحقيقة؛ لكنه فقط مرسوم في الخيال.



سرُّ جمال الحياة ربما يكمن في التخلص من تداعيات الماضي، والإعراض عن تقليب صفحاته، طمعًا في أن تقوم برسم قصة جديدة تبدأ أول فصولها عند لحظة التخلص من الظلام المحيط بك، حتى لو كان السبيل إلى ذلك هو الهروب من الضوء المتوهم؛ لتحصل على حياة واقعية بعيدة عن الأضواء، لكن بغدٍ أجمل، وتطمع أن يكون أفضل.

## كأنها البارحة

شعور يخالـجك دائماً ولو كنت تزعم خلافه، ظنك أن العمر يقف عند نقطة محددة، فلا يتقدم ولا يتحرك، وفجأة يمر أمامك من الوقائع ما يجعلك تنتبه إلى تسارع الأيام ودوران عجلتها.

بالأمس نظرت إلى بنيتي الصغيرة، طفلة تلعب بين يدي، تملأ الدنيا حيوية وضجيجاً وصخباً؛ واليوم إذ بها فتاة على وشك أن تنهي دراستها الثانوية لتبدأ مرحلة جديدة في حياتها ومحوراً آخر.

لما نظرت إليها نظرة المتأمل، وأمعت النظر، أيقنت بتقدم العمر، وإنما الفرق بين الناس يتمثل بمقدار ما جنوه من النتائج بعد رحيل أيامهم؛ حتى يحمد الراح مسعاه، ويندم المفرط على ما فرط فيه في سالف أيامه.

بالأمس حضر عندي في قاعة المحاضرات طالبٌ يدرس في سنته الجامعية الأولى، ولما قرأت اسمه فإذا هو ابنٌ لصاحب لي قد شهدت زواجه حين دخل على والدة هذا التلميذ، فازددت يقيناً بمضي العمر، وكأن صارخاً يصرخ في أذني ويقول: لِمَ لا تريد أن تصدق أنك بدأت تتخطى مراحل الحياة، وتقطع الطريق تلو الطريق حتى تصل إلى نهاية المطاف.

كم ينسى المرء أنه قد مضت أيامه، ومضى عمره، ولا يكاد يصدق ذلك حتى يمر أمامه شخص من أقرانه وأترابه، فإذا دقق النظر في وجهه، ورأى ما حلَّ به من التغيير، تخيل أنه انعكاسٌ لصورته، وشهادةٌ بتغير حاله.

لا أدري ما سرُّ هذا الهروب من هذه الحقيقة القادمة لا محالة، هل هو هروب من الشيخوخة، أم حبًّا في الحياة، أم كراهيةً توديع أيام الشباب، لعلمنا أنها أنفُس أيام العمر.

من طريف ما يذكر أنَّ أول علامات تقدم السنِّ بالنسبة للمرأة؛ كراهيتها النظر في المرأة، والتي كانت تقضي أمامها الساعات الطويلة، ولا تملُّ النظر إليها داخلة وخارجة، وما هذا إلا لكراهيتها أن تأخذ صكًّا يفيد تقدمها بالعمر، وهذا يعني أفول الشباب والقرب من الكهولة، وكأنها بذلك تمارس رفضها الإذعان لهذه الحقيقة بطريقة عملية.

غريبٌ حال البشر!!

الطفل يتمنى أن لو كان كبيرًا؛ حتى يستمتع بما يستمتع به الكبار من أنواع الرفاهية، فإذا صار فتى؛ ودَّ أن لو كان كهلاً؛ حتى يمارس ما يمارسه الكبار من السفر والرَّحلات؛ وغير ذلك، فإذا صار شيخًا كبيرًا تمنى أن لو رجع شابًّا؛ لعلمه بما في تلك المرحلة من أسرار، كما قيل:

عَرِيْتُ من الشباب وكنت غَضًّا      كما يَعْرِى من الورقِ القُضيبُ  
وَنُحْتُ على الشباب بدمعِ عيني      فما أغنى البكاءُ ولا النحيبُ  
فيا ليت الشبابَ يعود يومًا      فأخبره بما فعل المشيبُ

ولربَّما تمرُّ به أوقات كثيرة يتمنى أن لو رجع طفلًا بريئًا، بعد أن امتلأ قلبه

بالمهموم، وضاق صدره بالأحزان، وثقل كاهله بأعباء الحياة.

وعلى الرغم من كل هذه الأمنيات، سيقف المرء مُقِرّاً بالحقيقة التي مارس الهرب منها بأساليب شتى، وهي أنه سيتجاوز محطات العمر محطةً محطةً؛ حتى يبلغ إلى حيث تنتهي به المرحلة ويتوقف به المسير.

يحب الفتى طولَ البقاءِ وإنه على ثقةٍ أنَّ البقاءَ فناءٌ  
إذا ما طوى يوماً طوى اليوم بعده ويطويه إنَّ جنَّ المساءِ مساءً

## لا تغلق الباب

في علاقاتنا الاجتماعية هذه الأزمان، يجب التيقن أن العقول قد تغيرت، والعمق الفكري عند كثيرٍ من الناس بدأ يتحول إلى تفكير سطحي، وهذا الواقع مما يجب أن يدفع الناس إلى الحذر الشديد حين التعامل مع من يرتبطون به في علاقة اجتماعية أيًا كان نوعها.

وليس المقصودُ بالحذر التعاملَ بالرسومية والثقل حتى يؤدي ذلك إلى إضفاء صبغة الملل التي ينتج عنها بعد ذلك قطع العلاقات، لكن المقصود أنه إذا فُتح بينك وبين من ترتبط به بابٌ من الإخاء والمؤانسة، فلا تغلق الباب جراء ما ينتج عنك من تصرفاتٍ تجاهه، ولا تدفعه بالمقابل أن يغلق الباب دونك فتخسر صاحبًا ربما لن يُعوّض.

نفوس الناس لم تعد كما هي في عهدنا السابق، فقد عادت ضيقة بسبب المدينة التي يعيشونها، والتي نتج عنها الأنانية وتفشي «الأنان»، وحتى من لم يكن من أهل هذه الصفة تأثر في طريقة تعامل الأنانيين، فلم يقلدهم ابتداءً ولكنه تعامل معهم بنفس المنظور ومن ذات المنطلق، حتى يضمن احترام ذاته لذاته، فعادت دائرة توصل إلى نقطة البداية بلا فرق.

ومن أعظم الناس خسارة مَنْ فُتح له بابٌ يستطيع من خلاله أن يلج إلى قلوب الناس، ومع ذلك سارع بإغلاق ذلك الباب بسبب سلوكٍ صدر منه لم يكن يتصور أنه سيبلغ به ما بلغ.

تعاملنا مع الآخرين بعبارتنا المؤدبة الرقيقة التي لا تخلو من عاطفة ظاهرة تفتح أبواب القلوب، وإذا علمنا أن استعمال العبارات الجارحة يغلق تلك الأبواب كان لزاماً علينا أن نجتنب هذه العبارات.

خلال مراحل هذه الحياة قد يحدث أننا نستعمل مع الآخرين بعض العبارات القاسية، فيحملها الآخرون منّا، ويفسرون موقفنا بأننا أردنا لهم النصح، وأن ما نطقنا به كان سببه حرصنا الزائد عليهم، فيتجاوزون الوقوف على اللفظ إلى استشفاف القلب، لكن حينما تكون العبارات جارحة فإن ذلك يحتاج إلى قوة قلبية حتى يتجاوزوا تلك المحطة، ويستأنفوا الحياة، ولكنهم بالتالي حتماً سيغلقون دوننا الباب.

احتقار المقابل بالألفاظ، بالتعبير، بالانتقاص، عبارات يصعب تجاوزها، وهي مؤلمة له كما هي مؤلمة للمتكلم لو قيلت في حقه، فإذا وضع المرء نفسه مكان الآخرين، لم يستعمل هذا الأسلوب الخالي من الرحمة.

قد تختلف الناس في طباعها بين السهل والشديد، والحازم واللين، ولكنهم يتفقون على أن أنفسهم ليست رخيصةً عندهم، ولا هينة عليهم، ولذلك يمكن أن يخسر الإنسان أقرب الناس إليه مقابل أن تبقى نفسه محترمة.

وأقسى ما يمر على الإنسان، ويعرف أثره مع الأيام، إذا أغلق باباً يكون عنواناً لوفائه فيضحى به، وذلك مثل أن يكشف في لحظة غضب سرّ من استودعه إياه، وراه أهلاً لذلك، فما أعمق الجرح وأشدّ النكايّة!

فإنه بالرغم من شدة الألم الواقع على صاحب السر، إلا أنه في الحقيقة إشارة إلى تزعزع شخصية المتكلم وعدم اتزانه؛ لأنَّ هناك أمورًا لا ينبغي أن يخوض فيها المرءُ مهما بلغت حدَّة الجفوة، وعمق الفجوة؛ لأنَّ صاحب السِّر سيغلق الباب، لكن من الذي سيداوي جرح الذي أفشاه وقد جرح نفسه جرحًا لا يُرم، وكسرها كسرًا لا يجبر، يزداد عَطْبًا كلما تذكر ذلك الموقف الذي شهد فيه على نفسه أنه خائنٌ لما استؤ من عليه.

إن من سعادة المرء إذا فُتِح له بابٌ إلى قلوب الناس أن لا يرى لنفسه فضلًا عليهم بما يقدمه لهم من أسباب الهناء؛ لأن ما يستفيده هو أضعاف ما يقدمه لهم، ويكفي من ذلك استشعاره أنه امرؤٌ ناضج مميز، فُتِسِرَّ نفسه، وَيَسْعَد قلبه. ولذلك من الضروري أن يحافظ المرء على هذه النعمة التي لا يدركها الكثيرون، وأن يبتعد عمَّا يكدر علاقته مع الآخرين، فيغلقوا دونه الأبواب التي يجتني من خلالها طيب الثمرِ ونفيس الجوهر.

## لا تنس نفسك

جميل أن يبذل المرء للآخرين بسخاء، وأن يستصغر ما يعطيه مهما كان كبيراً، ولكن بين هاتين المنزلتين ينبغي أن يلتفت لنفسه، فيكرمها بالراحة التي يستطيع على إثرها متابعة السير وبلوغ الهدف.

الناس الذين يعيشون حولك إما قريبٌ ملاصقٌ ستبذل له قُصارى جهديك، وزهرةً شبابك، وبريق قُوَّتِكَ، وفي آخر المطاف سيعيش حياته الخاصة، فإن وُفِّق للإحسان أشبعك عاطفياً في وقت حاجتك لذلك.

وقد يكون هذا الذي يعيش حولك من بقية الناس الذين تلتقي بهم في مراحل حياتك، فيلجأون إليك في حال حاجتهم إلى ذلك، ثم بعد ذلك يواصلون حياتهم التي لا تمثل أنت جزءاً منها، ليس لأنهم ليسوا بأوفياء أو أنهم ناكرو جميل، لكن لأنه لم يكن ثمة علاقة تربطهم بك أو تربطك بهم، ولذلك لو لم يحصل اللقاء معهم مرةً أخرى، لن تجد في نفسك عليهم شيئاً، فهذا واقع الحياة الذي تعارف عليه الناس.

ومن أجل ذلك تكون المحاسبة مع القريب الملاصق أكثر والمطالبة في الحقوق أكبر، فإذا رأيت منه تقصيراً، أو شحاً في العطاء، وجدت لهذا أثراً في نفسك، على أن هذا لا ينبغي أن يكون، فإنَّ الكريم يعطي بسخاء دون النظر فيما يعود عليه، وكلما زادت الأيام حرقاً، فاح عبيره، وانتشر طيبه.



ولذلك وأنت في خضمّ الأحداث، وكثرة البذل الذي لا ينبغي أن تمنع نفسك منه لأنه سيعود إلى خير، ينبغي لك أن لا تنسى نفسك التي بين جنبيك، فابذل لها مثل ما تبذل للآخرين دون أن تكون أنانيًا، وأسعدها بقدر ما تستطيع وبكل سبيل، ما لم يكن ذلك السبيل إثماً، ولا تكن كالشمعة التي تحرق نفسها لتضيئ للآخرين، ثمّ تقف في آخر سعيك قائلاً: «لقد نسيت نفسي».

وكن على أقل أحوالك ممثلاً نفسك برجل أطال الركض حتى انقطع نفسه، فاحتاج إلى وقت يرد فيه نفسه ويريح قلبه حتى لا يحمله فوق ما يتحمل.

ستمضي بك الأيام سريعاً، وترى الناس الذين بذلت لهم وقد عاشوا حياتهم، فمنهم القليل الشاكر، والكثير الناكر الذي يبخل عليك حتى بكلمة تحيي شعور العاطفة في قلبك، وهناك يزداد ألم الباذل ويرى أنه قد أضاع وقتاً كبيراً من حياته بلا جدوى، ولا ينجو من هذا الشعور إلا رجلاً: رجلٌ كان كلُّ سعيه لله، فيطمع بالجزاء من الله تعالى وحده، لا يبحث عن كلمة ثناء ممن بذل له، ولا جزاءً، ولا شكوراً، والثاني: رجلٌ بالرغم من سعيه وبذله للآخرين لم ينس نفسه، فعاملها كما ينبغي، ولم يترك لها حجة عليه.

ما أجمل أن تكون وفيًا، كثيرَ العطاء، لكن إياك أن تنسى نفسك، فإذا تقدم بك السن قلت: «ليتني أراجع إلى سالف أيامي فأصحح خطئي مع نفسي».

فإذا كنت وفيًا مع الآخرين، فنفسك بذلك أولى، فلا تقصر في حقها فتندم.

## لا يلتقيان

من الأمور المسلمة في هذه الحياة، والتي لا تحتاج إلى كثير بحث واستنتاج، أن المرء ما دام يعيش في هذه الدنيا فهو يتقلب بين الواقع والأمنيات، وأخطر الأمانى ما يعرف المرء من بداية السير في طريقها، ووضع قدمه في أول مدرجتها، أنها بعيدة المنال ومستحيلة الوصول، ولذلك فإن العاقل حينما تخطر في قلبه المخاطر، يقف وقفة المتأمل الذي يعرف إن كان الأمر سيؤول إلى حقيقة، أم أنه مجرد أمانى لا يحصل من خلالها على شيء، بل سيجني من خلالها ألم الحسرة ومرارة الفقد.

ليس بالشيء السهل ولا العمل الهين الذي يقوم به المرء ليقطع جبل الأمنيات المستحيلة، ولكنه عمل لا بد أن يقوم به قبل أن تتعلق نفسه به فيموت في اليوم عشرات المرات، ويدهمه التفكير حتى تخور قواه ويضعف عقله، فينقطع عن مصالحه التي فيها استقامة حياته، وطمأنينة نفسه.

ينبغي للمرء إذا فتح له باب الأمنيات، ورأى أنها أكبر من الواقع، أن يحدث نفسه قائلاً: «لا تحلم بما هو أكبر منك»؛ فإن مثل الذي يحلم بما هو أكبر من واقعه كمثّل من يحمل أثقالاً فوق طاقته فهل تظن أنه سيحملها إلى مكان آخر؟ أم أنه لا يزال واقفاً أمامها يحدث نفسه أنه سيفعل المستحيل، ولا يجني من وراء ذلك إلا مجرد التفكير الذي ينخر قوّته دون نتيجة؛ لأنه مجرد حلم.

كم رأيتم في واقع الحياة ورأينا من الصور التي تجعلك تتعجب أشد العجب أن أصحابها وقفوا هذا الموقف، وطمعوا غاية الطمع أن يتغير الواقع لهم، وتعلم أنت بذلك لأنك خارج أسوار الواقعة، فتقف مستغرباً أشد الاستغراب، ومع ذلك لم تنكشف لهم الصورة كما انضحت لك؛ لأنهم في ذلك الوقت كانوا يخوضون في بحور الأمان، وفي كل لحظة كان يأخذهم الأمل نحو المستحيل.

نحن لا نبالغ ونقول إن التخلص من هذا الشعور أمر سهل، ولكن نقول إن دفعه في بدايته أهون من محاولة رفعه بعد أن يقع.

كم حطمت الأمان من القلوب، وجمعت بين الواقع والمستحيل، وهما لا يلتقيان، وفي ذلك أعظم العبر واليقين الذي يكشف للإنسان حقيقة نفسه بأنه مخلوق ضعيف لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، كما أن في ذلك معرفة الحكمة، ففي الوقت الذي يدفع الأمل بعض الناس نحو الوصول إلى الهدف الذي فيه صلاح حياتهم، إذ ببعض الأمان تُحطّم مركب أصحابها على صخور شطآنها القاسية، قبل خوضهم في بحورها المجهولة العاقبة، ولعل الفرق بينهما أن أحدهما بنى أملاً على أمرٍ فيه مجال أن يتحول إلى واقع رغم ما يعانيه من المشقات الملتصقة به، والثاني أطلق عنان خياله لأمرٍ لن يكون واقعاً، بل هو معانقة للمستحيل.

## لتعذره.. ضع نفسك مكانه

كثيرٌ منا يحرص على استيفاء حقه من الآخرين، وإذا رأى منهم نوعَ تقصير بدأ بالتذمر والعتب، وكأنه الشخص الذي لم يقصّر في حق أحد، ولم يجعل لشخصٍ عليه سبباً.

وهذا الفعل إنما يتصف به من لم تصقله التجارب ولم تزعزعه المواقف، فتراه يتعامل مع الآخرين بدقة، لا يتغافل عن خطأ ولا يعذر في زلة أو هفوة. ولكي تعذر شخصاً ما، في موقف ما، ضع نفسك مكانه، حتى لو لم تعرف حقيقة حاله فعليك أن تتوقع أن يكون قد حدث له ما جعله في حالٍ غير ما كان معهوداً منه.

كنت في السابق حينما يتقدمني سائق سيارةٍ جديدٌ على البلد، يجهلُ طباع أهله، ويستنكر طرقاته، فأراه يسير ببطء شديد، ويعطل السير، كنت أضيق به ذرعاً، وربما أحكم عليه بقلة المعرفة، وربما بشدة الغباء، فلما اضطرت إلى أن أستقدم سائقاً، ليعينني على أعباء المنزل، فإذا بي أجدني حينما يركب أطفالي الصغار معه ليوصلهم إلى مدارسهم، أرى وكأنه أخذ قلبي معه، فأجدني أوصيه بالقيادة ببطء، وأن لا يهتم بأصوات أبواق السيارات حينما يضيقون به ذرعاً، المهم أن يكون أطفالي آمنين.

هذا مثال ربما يوضح شيئاً من الحقيقة التي تخفى عنا حتى نكون عنصراً منها، وعليه فقس باقي أحداث الحياة، فإنك ستكون بعد ذلك شخصاً خفيف الأعباء، سهل الفهم يأنس به من خالطه.

لقد رأيت بعض الأشخاص وقد استثقلهم الناس بسبب دقتهم غير المعقولة، بل قل: غير المتعقّلة، فتجدهم يعاتبون على كل شيء، وربما يكررون عتاب شخص كلما رأوه على موقف معين، فتجد ذلك الشخص إما أن ينفجر في وجوههم مبدئياً استياءه من تكرار العتاب، أو أنه ينسحب من حياتهم، ويجعلهم في ركام الماضي الذي لا يُفرح به.

لم يتصور بعض الناس حينما يعاتب أن كثرة العتب تورث الملل، وأن الناس عندهم ما يشغلهم، وكلما عمّر الإنسان كثرت أعماله وعلاقاته وانشغاله الذهني وكثرة الهموم حتى يصاب بالجفاف، فيحتاج إلى من يخاطبه بلطف، ويحاوره بحنان، ويغذيه بالعاطفة، لأن قلبه لم يعد يتحمل.

قد تستغرب حينما ترى فلاناً المشهور بالحلم وطول البال، وقد انفجر لموقف تراه لا يستحق ردة الفعل القوية التي حدثت، لكن لو أنك سبرت مجريات حياته وكثرة ما يحيط به، ربما عذرته فيما رأيت منه.

لذلك إذا أردت أن تبقى علاقتك بشخص ما قائمة إلى الأبد ولا تريد أن تخسره، فلا تدقق في كل حدث أو ردة فعل تكون منه، واعذره كما تريده أن يعذرك، وعامله كما تريد أن يعاملك، فلا تستقص في حقك دائماً، ولا تجعل

لقاءك به مجلسًا لطلب الحقوق والعتاب على التقصير، فإنه ربما يتقبل حديثك في وقت ما حتى لو كان قاسياً وتخطيت به حدود المعقول، وفي حال آخر لا يتقبل منك ولو كلمة واحدة، فالنفوس لا تستقر على حال، ألا ترى أن شخصاً ما قد يمازحك بكلمة فتراك وقد ضحكت، ثم في يوم آخر يمازحك بمثل حديثه الأول فإذا بك وقد استثقلت مزحه؟ لم؟

فالشخص ذات الشخص، وقد كنت تراه خفيف الظل، والموضوع ذات الموضوع، والأسلوب هو الأسلوب نفسه، لكن الذي اختلف أن حالك التي كانت في الموقف الأول ليست هي التي تعاملت مع الموقف الثاني.

فإذا كنا نعلم من أنفسنا أن أحوالنا لا تستقر على هيئة، فليكن معيارنا في معاملة الآخرين هو نفس المعيار الذي نريد منهم أن يعاملونا به، حتى تبقى علاقتنا قائمة، ومعاملاتنا منضبطة، وأحاسيسنا ومشاعرنا مأمونة مما يكدرها، وإن انحرفنا عن سلوك هذا المعيار إلى حيث التدقيق على أقل الأشياء وأكبرها، فلن يستقر لنا قرار إلا أن يعيش الإنسان في معزل عن الناس، وهذا هو الداء الفتاك الذي لا دواء له، والكدر من العيش الذي ليس بعده صفو.

## لن يمسحوا دموعك

إذا كان المرء يريد أن يعيش هادئًا هانئًا، فليقدم الخير للآخرين، ويجهد أن يكون سعيه بلا مقابل، فلا يطمع فيما في أيدي الناس، ولا ينتظر منهم جزاء؛ لأن ذلك ربما يكون أو لا يكون، ومن وطن نفسه على طلب الثمن -ولو كان مدحًا- زاد تعبته وكثر عتبه.

وطن نفسك أن تبذل بوفاءٍ وليس من باب ردّ الجميل، فتعطي الآخرين لأن طبعك الوفاء والبذل، وتطمع أن تدخل السرور عليهم، وتنال الأجر. وربما في زحمة هذه الأحداث تحتاج إلى من يخفف عنك ولو بكلمة ثناء، أو عبارات شكر، فلا تجدد، فكيف تطمع بما هو أكثر؟!

لقد طُبع الناس -إلا ما ندر- على حبّ التقصي فيما يكون لهم، وعدم المسامحة في ذلك، فإذا كان الأمر متعلقًا بالآخرين وجدت شحًا شديدًا، وبخلاً معيبيًا.

لذلك من أجل أن ترتاح، ويكفل سعيك بالنجاح، لا بد أن يكون البذل لله، بغض النظر عن الشخص الذي تعطيه وتجهد نفسك من أجله، فإذا فعلت ذلك، فإنك حتى لو لم تجد منه ما يدل على شكر صنيعك لم تندم؛ لأن الهدف من العطاء كان أعظم.

بل وينبغي للمرء أن يتوقع ما هو أشد، وأن يعمل على تهيئة نفسه على ما لا يكون بالحسبان، من نكران الناس لجميله، وربما ذكره بالذم والتنقيص، أو مدحه مع اتهامه بأنه فعل ذلك دون رغبة.

هكذا هم الناس، وهكذا هو طبع البشر، وإلا لما تميَّز الأوفياء، ولما ساد أهل المكارم.

وأنت عش واقعك، ولا تحلم بأكبر مما هو على أرض الواقع، فإن سلمت على نفسك من الآخرين رغم ما تقدمه فاحمد الله، ولا تطمع أن تنال عبارة مدح أو إطراء من هؤلاء، فضلاً أن تطمع أن يمسحوا دموعك حين تحتاج إلى من يحمل همك ويداوي جرحك.

مشكلتنا أننا خلال تعاملنا مع مجريات الحياة نتعامل بما نحلم ونأمل وليس بما نعيشه، على أن نعيش الواقع وعدم الخوض في الأحلام هو السبيل إلى طمأنينة النفس، وإقناعها بأنه لن يكون الحال أفضل مما هو عليه على الحقيقة.

قد لا يشعر بمقدار الألم إلا من اعتاد على كثرة البذل والعطاء، فيراوده الحنين أحياناً إلى كلمات الثناء التي لا يستعملها إلا القليل من الأوفياء، فلما لم يجد ذلك شعر بالمرارة لعظيم ما يبذل، مع عدم وجود من يسرُّ قلبه بكلمة شكر، لن تزيد من ثرائه، ولن تعظم من جاهه، ولكن على الأقل تشعره أن هناك من يثمن عمله.



لا ينبغي لك أن تحلم كثيراً، فالناس قد اعتادوا على الأخذ، ويطمعون دائماً منك بكثرة البذل، فإذا لم يجدوا ذلك ناصبوك العداة بالأفعال، أو بجحد القلوب، ونسوا جميل ما تفعل، بل ولو أنك قصرت في موقف واحد، مع بَدَلِك العظيم في كل ما سبق من الأحداث، أنكروا فضلك.

ماذا نفعل؟ نحن في زمن شح فيه الأوفياء.

وبالرغم من ذلك، احذر أن تبخل في بَدَلِك للآخرين وأنت تستطيع أن تفعل، واجعل ذلك لله، وفي المقابل كن على حذر أن تنكر فضل أحدٍ قدّم لك معروفاً يوماً من الدهر، واربأ بنفسك أن تسلك طريقاً لا يليق بمثلك؛ لأنك لم تجد جزاءً من الناس، فالكريم إنما يعمل لاسمه، وحتى يبقى رسمه، وحتى تبقى معالم الخير شاهقة، وأنوار المكارم بارقة.

ومن عظيم الوفاء أن يعظّم المرءُ معروف الناس عليه، فيذكرهم بحسن الثناء، وجميل الدعاء، وكلما كان المعروف صغيراً والمدح له كبيراً؛ دل ذلك على كريم طبع الشاكر، وحسن أخلاقه وسجاياه، فإنه لا يعرف الفضل لأهله إلا أولو الفضل، ولذلك حكم الناس على من تلقى المعروف الكبير بالجحود بأن ذلك من رذالة الأخلاق ولؤم الطباع.

ومما يعرفه أهل العقول الصحيحة أن أحوال الناس ليست دائماً السرور والهناء، فقد يكون المرء كثير البذل، ثم يرى منه تقصيراً في أمر سهل بالنسبة لما فعله في سابق عهده، فلا ينبغي القسوة عليه في العبارات، بل ليكن ما قدّمه في

سالف الأيام شافعاً لما قصّر فيه في هذا الموضع، والكريم هو الذي يلتمس لصاحبه العذر، فإنه لا يعلم حقيقة حاله إلا هو، ولربما تعرف في مستقبل الأيام عذره الذي دعاه لذلك الفعل، لكن ليكن من أعظم ما يمنعك من الخوض في صاحبك تذكّر جميله، حتى إذا أرادت كلمة السوء أن تخرج من فمك وجدّت لها ألف مانع يجرها، حتى تعود إلى مكانها قبل أن تنطلق.

إياك أن يدعوك ما تراه من تراجع كثير من المقصرين عن التسابق إلى الخيرات إلى أن تنحو نحوهم، وتقلّد صنيعهم، بل كن سباقاً إلى الخيرات والبذل بسخاء والتعامل بغاية الوفاء، فإذا أردت أن تشكر صنيع نفسك بعد زمن، ولا تردّ إليك خواطر الندم، فاطلب جزاءك من الله وحده، واعمل بأخلاقك أنت، لا بالنظر إلى ردود أفعال المقابل، واعلم أن المجتمع في شحّ كبير من الأوفياء، ومنتهى السعادة أن تكون منهم، فتظفر بالسؤدد، وتفوز بحسن الشاء، فإنما تتميزّ الأشياء إذا ندرت.

## ماذا تفعل إذا احتاجوا إليك؟

مهما يكن الإنسانُ محببًا للكلام، مكثراً منه، ينبغي له في بعض المواقف أن يلزم الصمت، ويكثر التفكير، ويستحضر الانتباه، ويترك الشواغل التي في يده ويحسن الاستماع، لأنه ربما في بعض المواقف سيمثل حركة انتقالية في حياة غيره، وتحوّل حياته إلى طريقٍ آخر، ولو لم يكن ذلك، فعلى الأقل حتى لا يصاب ذلك الشخص بإحباط، حيث كان يتصور أنه وجد من يفهمه ليدلي إليه بمكنون صدره، فإذ به وقد جاب كل الدنيا بفكره إلا ذلك الشخص الذي لجأ إليه.

كثيرون هم الذين يلجأون إلى غيرهم ليعرضوا عليه مشاكلهم علّهم يظفرون بحل، وأحياناً قد يأتون إليه وهم مستيقنون أنه لا يملك لهم حلاً، ولكن ظنوا أنهم قد وجدوا من يستطيعون عنده أن يخرجوا آهات صدورهم، وأن يطفئوا نار أكبادهم، فيُفاجأوا بالواقع المرير حيث يصدمون بشخص لم يحس بهم، ولم يأذن لهم بالولوج إلى آهات قلوبهم ليخرجوها عن طريقه.

قد نمثل أنا وأنت مرحلة في حياة الآخرين، فلا بد أن نعدّ ذلك فرصة لا تُعوّض يجب أن نستثمرها.

قد يمرّ بك في هذه الحياة أناسٌ يحتاجون إلى مالك، أو جاهك لتشفع لهم في موضوع ما، لكن هؤلاء نسبة ضئيلة مقابل من يأتون إليك وهم محتاجون إلى

كلماتك وصدق مشاعرك، لدرجة أنك ربما بكلمة واحدة منك تأسر قلوبهم، وتطبع في أذهانهم ذكرى لك لا تُمحى مع مرّ الأيام والسنين.

لذلك لا بد أن نحسن التعامل مع مثل هذه المواقف والأحداث، فقد نكون يوماً في موقع المُلتجأ إليه، ويحتاجه الناس، وفي مرحلة أخرى نكون نحن الذين نبحث عمّن نلجأ إليه ليشاركنا آهاتنا، أو يهدينا مشورته، أو يترجم ذلك إلى فعل موافق للقول.

رأيت انكسار بعض الناس رغم قوتهم، حيث يمرّ بهم موقف قاسٍ يجعلهم يتخبطون، رغم راحة عقولهم؛ لأن البشر ضعيف، ومع ذلك يزدادون انكساراً حينما يكشفون أسرار حياتهم، ويظهرون ضعفهم أمام شخص يظنونه أهلاً - وقد كان كذلك - لكنه يتلقاهم ببرودٍ مشاعر، وذهنٍ مشغول، فيزدادون حسرةً وندماً، حينما كشفوا أوراقهم أمامه، وهو يغرد خارج السرب، وربما كلّف نفسه في نهاية المطاف أن نطق بكلمة توحى بالتفاعل، ولكن الواقع يدعو للإحباط.

لو فهمنا أن بعض الناس يصعب انكسارُهُ، ويعسر أن ينطق بما يدور في حياته من أمورٍ خاصة، ومع ذلك يأتي إلى شخصٍ ليثبه حزنه، ويطلعه على خلجات فكره.

ولو فهمنا هذا الأمر علمنا مقدار حاجة الناس إلينا في مثل هذه الحال، ولذلك يجب أن نفرغ لهم أذهاننا ونعيش معهم بوجداننا، ونحاول أن نبدي غاية الاهتمام نحو ما يتكلمون به.

ستحتاج يوماً إلى من تتحدث معه، وترى أنه قد امتن عليك باستماعه  
لحديثك، رغم أنه لم يقدم لك شيئاً سوى ذلك، لكن الحال الذي كنت فيه كان  
يحتاج إلى من يحوطك بلطفه حتى لا تنفجر.  
فإذا كنت أنت ذلك الشخص، وجاءك من يفر إليك من زحمة الحياة وتراكم  
الهموم، فاحذر أن تخذله، فربما لن يحتاجك غير هذه المرة، فإياك أن ينصرف  
عنك ولم تترك به أثراً يذكر فيه، ويذكره بك.

## هل نشترى الدموع لنرتاح؟

تتكالب علينا الهموم، وتحدُّ سيوفها لتقطيع قلوبنا.  
فنبحث عن أداة نواجه فيها هذا الهجوم الشرس، أو آلة نهرب من خلالها  
عن هذه المواجهة، فيُخَيَّل إلينا أنَّ هناك منفذًا إلى الخروج ووسيلة إلى الراحة،  
تتمثل في دمعة حرى تبرد لوعة الأكباد وتبل فؤاد الحزين.

نفزع إليها، نركض نحوها لنقتنصها، فتخوننا حيلتنا أحوج ما نكون إليها.  
تختلف همومنا، وتتنوع آهاتنا، إلا أننا نتفق على أنه لا سبيل للراحة إلا  
برفع الستر المسدل على العيون، لنعطيها الفرصة حتى تنطلق.

ولكن هل نملك ذلك؟

كم تنظر إلى أنَّ سبيل راحتك يكون في البكاء، ومع ذلك تجده غالي الثمن،  
صعب المنال، فتعود أدراجك متأوِّهاً، قد حملت أضعاف ما كنت تحمل من  
الهموم وتشعر به من الألم.

لا تعجب لو قال لك إنسان: أتمنى أن لو كانت دموعي بيدي حتى أرسلها  
لتعبر عمّا يسكنني من الحسرات.

فهذا حال كثير من المنكسرين الذين عصفت بهم الهموم، ويملكون فيضًا  
من الدموع، ولكن لا يملكون إرساله ليطفى حراً الأكباد، ويشفي غليل الصدور.

فما أعظم الحسرة!

لا تظن أنَّ الهم الذي يعصف بقلب امرئٍ محتاجٍ إلى التعبير، كان بسبب همٍّ خاص أو قضيةٍ مقصورة عليه، بل ربما كان همًّا يمسُّ أمةً، لا يملك المرء أمامه حين لا يجد من يشاركه الشعور؛ إلا أن يبحث عن مؤنسٍ لا يتكلم، متمثلاً في دمعة حرّى، فلا يجدها.

فهل يشتري الدموع ليرتاح؟ ما أصعب الاختيار.

## وقت الحاجة

من عاش في هذه الحياة، وطالت أيامه ولياليه، علم وقت حاجته، والأهم من ذلك أنه سيوقن أنّ من زرع في وقت الرخاء حصداً في حال الحاجة.

ليست الحاجة محصورةً بنوع معيّن أو كسب مادّي، إنما تختلف حسب الوقائع والأشخاص، وأكبر دليل على ذلك أنك ترى المرء فاحش الثراء كثير المال، ومع ذلك فهو فقير إلى المشاعر محتاج إلى العاطفة.

ولذلك لا بدّ للمرء إذا صفا له العيش أن ينتبه إلى ما يحتاجه في وقت الاضطرار والضعف، فقد فرط أقوام في فهم هذه الحِقبة فندموا أشد الندم حين صحوا من غفلتهم، ولكن حين لا ينفع الندم ولا يُغيّر الواقع.

رأيت أناساً تعبوا على تربية أبنائهم في حال الرخاء، وربما حبسوا أنفسهم عن بعض ملذاتهم من أجل تربيتهم، فلما كبرت سنهم واحتاجوا إلى معين يخفّف عنهم الحمل الثقيل، فإذا بالابن الذي أحسن تربيته، وعانى في صقل شخصيته، يقوم بهذا الدور العظيم.

فتجد الابن وقد قام بتجديد حياته، وكثُر إنتاجه، وسعدت أيامه.

ورأيت في المقابل قوماً أغفلوا التعامل مع هذه المرحلة تجاه أبنائهم، فلما تقدمت أيامهم واحتاجوا إلى معين لم يجدوا، فعادوا إلى حمل أنقاليهم من



جديد، ولكن هذه المرة بجسد لا يقوى، وقلب لا يطيق الاحتمال، ومشاعر لا تتوافق مع الواقع، فإذا بالحسرة تزداد، والقلق يسيطر، والندم يستولي. ربما نحتاج حين التعامل مع مراحل الحياة، أن نتعامل معها معاملة التاجر الذكي، الذي يجتهد في أول حياته لتأسيس ثروته، وتنويع مصادر دخله بنفسه، حتى إذا تقدم به العمر، سلم القيادة لغيره، وحصر دوره في الإشراف، فليس له من الكدّ والتعب إلا التفكير برصيده المتنامي.

ورأيت من الناس من اجتهد في حال شبابه بالقراءة والنظر في أنواع العلوم وكد الفكر في حفظها وفهمها، حتى إذا بلغ مرحلة الحصاد فإذا به وقد جمع رصيّدًا ليس بالقليل، وأصبح إنفاقه من هذا الرصيد ليس مصدر عناء له، لأنه حفظه في صدره، وسهّل عليه بثّه، بل وتجد أن هذا الذي تعب فيه في شبابه صار سبب أنسه وسعادته في كبره، فحين يستوحش الناس حين قلة المسلي، وفقدان المؤمنس، إذ بحياته وقد امتلأت بالناس، يطلبون عنده الفائدة ويلتمسون عنده الهدى.

وعاد لينظر فيرى أصحابه المفرطين حين كبروا وقد تشابهت أيامهم ولياليهم، ويتنظرون وقت الرحيل أو ربما يتمنونه، وهو قد غاب عنه شبح التفكير القاتل لكثرة خلطائه الذين ملأوا حياته بتذاكر العلوم.

وترى من اجتهد في بداية حياته بتغذية مشاعر الآخرين حتى صار ذلك طبعًا له، فلما تقدم في السن واحتاج إلى المشاعر والعاطفة، وجد الناس الذين سقاهاهم المشاعر يبادلونه نفس الشعور، ويردون له الجميل.

وهذا باب لا بد من التنبه له حق التنبه، وهو معاملة الناس بكرم المشاعر، وأولى الناس بذلك هم الأبناء الذين سيشاركونك أيام حياتك ودقيق تفاصيلك، فزيادة على ما تعطيهم من العواطف التي تؤدي إلى استقرار حياتهم وتميز شخصياتهم، فإن زرعك لهذه المشاعر في حال الرخاء ستحصده في حال الحاجة.

وكم هو جدير بالذكر أنّ كلمة الحاجة بحد ذاتها تحتاج إلى تدبّر، وتأملٍ طويل، فإنّ الحاجة لا يعرفها إلا من فقد شيئاً يتمنى الوصول إليه ولم يجد إليه سبيلاً، فما تظن أنك بحاجة إليه في وقت الحصاد لا تقصر في غرس بذوره في حال الرخاء.

## الشوق

كم هو مؤثرٌ حقاً أن تشتاق إلى شخص ثم لا تجد سبيلاً إلى الوصول إليه أو الاتصال به، وكلما صار أمد الفراق أبعد كان الشوق أكبر، حتى يتحول إلى داءٍ فتاكٍ وألم قاتل، يكتم الأنفاس، ويثقل الصدور.

الخطأ عند بعض الناس في قصور عقله حيث تصور أن الشوق لا يكون إلا بين عاشقٍ ومعشوق، بعدت بينهم المسافات، وحالت دونهم الحوائل. والقضية أكبر من ذلك، فقد يكون ثمة شخص قريب إليك، ما زال على قيد الحياة، وربما تكون المسافة بينكما قريبة جداً، ومن ذلك يكون الاتصال معه بمثابة الجريمة العظيمة، حيث يترتب عليها دمار حياته، أو ذهاب نفسه، أو زيادة القطيعة بينكما، أو نتائج أخرى لا تتكشف إلا حيث ظهورها على سطح الحياة.

يشتكى بعض الناس أنه يموت شوقاً لرؤية أختٍ له تعيش في كنف زوج، ولا يتمكن من رؤيتها لأن مرض الوسواس الذي تعاني منه بسبب السحر جعلها تنقطع عن أقاربها، بالرغم من كون حياتها طبيعية مع الآخرين.

وتشتكي أمٌّ من فقدانها لابنتها وعدم قدرتها على التواصل معها، لأن لها زوجاً قاسياً منعها من رؤية أمها، لا لسبب ولكن لكونه شخصاً ظالماً، أو يعاني

من عقدة نفسية، فتبقى الأم تتذوق مرارة الفراق، فلا هي بالتي تستطيع الصبر عن رؤية فلذة كبدها وهي تحترق بلظى الأشواق كل يوم آلاف المرات، ولا هي بالتي تستطيع أن تتواصل مع ابنتها مخافة أن يطلقها الزوج أو أن يؤذيها بدنياً، فتتحطم الأسرة، فترى الأم وقد وقفت على مفرق طرق، واحتارت أيّ الأمرين تختار وأحلاهما مرّاً.

وترى ابناً حمله البر على حب الاتصال بأبيه الذي كوّن أسرة جديدة، وقطع حبل المودة مع الأسرة القديمة، فيجتهد الابن بالتواصل معه، وإذا بالأب قد قطع حبال الوصل مع أبنائه، وإن فتحها أحياناً سمعوا من العبارات والإهانات ما لا تتحمله الجبال الراسيات، ومع ذلك لا يزدادون إلا إصراراً على الوصل، مع أنه وإن حصل التواصل بالأبدان، فإن القلوب عن ذلك أبعد، حتى إنك لترى أبدان هؤلاء الأبناء تكبر وتنمو، وقلوبهم ما زالت فقيرة إلى العطف والحنان الذي يجعلهم كالأطفال الذين تهيجهم الكلمة، وتحركهم العبارة.

وأقصى ما يكون عليه الحال حين يكون التواصل مقطوعاً بين البنات والأم التي يُفترض أن تكون رحيمة ببناتها، رفيقة بهن، وتعمل على احتوائهن، خصوصاً إذا عشن في بيوت أخرى، وكوّن حياة جديدة، فتحتاج إحداهن إلى الهروب من الضجيج والصخب لترتاح قليلاً، فتتخيل أنها ستجد ذلك في بيت أمها، ولكن ومع الأسف لا تجد إلا عكس ذلك، فحين تقبل على هذه الأم بكل مشاعرها، تجد أمّاً أنانية لا تحب إلا نفسها، فتقطع الصلة ببناتها لتعيش لذاتها، فتخرج وتدخل دون ارتباط بأحد، وكأن آخر العهد ببناتها حين تزوجن، فكأنها ألقت حملاً ثقيلاً عن كاهلها، فلا تريد أن تتكلف صلة مرةً أخرى.

أو أنها تفتح الأبواب لبناتها لكن مع تباعد الأرواح، فتقابلهن بنفسية مضطربة، وكلما جاءت إليها ابتتها لتستقي شيئاً من المشاعر إذ بها تقابلها مقابلة المحقق القاسي، بعبارات بذية أو كلمات جارحة، أو أنها تطلب منها موقفاً ليس لها القدرة على تحمله، أو تدخلها في مواضيع ليس لها شأن بها، فإذا أبت، غضبت وزمجت وسبّت وأهانت، حتى تقتل كل معنى للفرح في قلب ابتها، التي كانت تتصور أنها ستجده عند الأم.

كم من البنات من تسأل وتقول: إنني كلما زرت والدتي في نهاية الأسبوع لأرتاح قليلاً من عناء المسؤولية، رجعت بهوم كالجبال، ونفسية محطمة، وشخصية مهانة من قبل أمي، بل ويكون ذلك أمام زوجي الذي يوقرنى، وأبنائي الذين أحاول أن أقومهم على الأدب، فهل يجوز لي أن أقطع هذه الزيارة؟

وبنت تشتكي أن زيارتها لأمها سببت لها الاكتئاب، وبدأت تعيش ألمًا نفسيًا، فإن لم تذهب اتصلت بها الأم وأسمعتها من العبارات ما لا تستطيع أن تتحمله، وإن زارتها رأت وسمعت منها ما هو أشد وأنكى، حتى بدأت تضطرب نفسيًا، وتعيش ارتباكًا كبيرًا إذا جاء اليوم المحدد للاجتماع والزيارة، فتسير إليه وهي تعلم أنها ستعود أشد الناس حزنًا وأكثرهم دموعًا، فلا تفرح بمسير ولا تظفر براحة.

وبعض البنات تعترف أن زيارتها لوالدها الأنانية البذية هو من باب المجاملة المجردة فقط، بل وإنها تمر بها مرور العجلى، لكونها قد تركت أبناءها بالمنزل حتى لا يسمعوها الإهانات والكلام البذيء الموجه إلى والدتهم دون ذنب أو جناية.

ومن تأمل هذه الأمثلة علم يقيناً أن الفراق القاسي المؤلم لا يلزم أن يكون الفراق الذي لا لقاء بعده في هذه الحياة، ولكن الفراق الشديد المؤلم هو الذي يكون بين أجساد تعيش على الأرض، ومع ذلك لا سبيل إلى اجتماعها، وبعضها قد يجتمع ولكن يبقى تباعد القلوب والأرواح.

ومع ذلك فإنه يبقى أناس لم يختاروا أن يفارقوك طواعية، ولكن جاءهم ما دفعهم إلى ذلك رغماً عنهم، فإن تبين ذلك واتضح لك جلياً، فامدد جسور العذر، وقدم حسن الظن، وأمسك لسانك عن الخوض فيما لا يليق، واذرف دموع الوفاء على شخص لعله يكون قطعة منك افتقدت وصله، وها أنت تتحسس أخباره، وتطمئن عليه دون أن يعلم بك أحد، لعلمك أنه لم يختر القطيعة ولكن أجبر عليها.

وإذا رأيت شخصاً أعلن القطيعة دونما سبب، حتى أصابك صنيعه بالعجب، وتبين لك أن ما دفعه لذلك غروره بنفسه واعتزازه بحميته وما حوته يده من الأسباب المادية، حتى نفخ به الشيطان فقطع حبل الوصل مع أحبائه، فأنأ بنفسك أن تكون مثله، والزم طول الصمت، وتجنب الكلام الذي يزيد الشقة.

فحريُّ به أن يصاب بصدمةٍ تجعله يفيق، فيحتاج إلى عظيمٍ مثلك، فإذا أردت أن تنصفه فاقبل معاذير الخلائق، فإنه تحدث منا بعض التصرفات التي لو لم يحملها الناس على التجاوز والتماس العذر، لكننا في نظرهم خاطئين، فقطعوا وصلنا، وأعلنوا قطيعتنا.

وعلى اختلاف الدوافع والأسباب، فإنك كلما أمعنت النظر، توصلت إلى الحقيقة التي لا تقبل الجدل، وهي أننا نحتاج إلى تواصل الأرواح، أكثر من تواصل الأبدان مع تفرق القلوب؛ لأن من عاش معك روحًا ملأك عاطفة، باستشعاره لآلامك وفرحه بتحقيق آمالك، وأنت كلما تقدم بك العمر أكثر احتجت إلى ذلك أكثر، واستشعرته يقينًا.

فإذا أردت من الناس أن يتواصلوا معك حال حاجتك لذلك، فكن معطاءً له حال توفره بين يديك، واقطع أسباب الجفاء، وعليك بالسماحة واللين، فإن الإنسان مهما قسا قلبه تمر به لحظات يراجع فيها نفسه، ويقلّب أوراقه، ويعيد ترتيب سجلاته، ولعله يجدك أهلاً لأن يضع فيك حاجته، فكن له فوق ما ظنَّ فيك من الخير، وانس ما تقدم من أفعاله السالفة، فإنَّ أول حبال التواصل التماسُ المعاذير.

## العجائب لا تنقضي

عجائب الدنيا كثيرة لا تنقضي، وعلى الرغم مما يمر أمام عينيك من العجائب والعبر، إلا أن هناك ما استوقفك ويجعلك تقف متأملاً طويلاً. ومما استوقفني هذه الأيام قصة عجيبة غريبة حدثت في إحدى الولايات الأمريكية، تدل على مدى التفكك والانحيار الذي يحاول الكثيرون من أبناء جلدتنا أن يستجلبوه لنا أو ينقلونا إليه.

فقد تم إنقاذ ثلاث فتيات من رحلة خطفٍ دامت عشر سنوات، وقد تم احتجاز الشابات في منزلٍ خشبيٍّ على بُعد أقل من كيلو متر من المكان الذي تعيش فيه أسرة بعض المخطوفات، وبالرغم من بشاعة قضية الخطف وقسوتها، إلا أن ما أثار استغرابي حقيقةً، هو أن أسرة إحدى الناجيات من الاختطاف لم تكلف نفسها حتى بتبليغ الجهات المسؤولة عن اختطاف ابنتهم، وبررت الأسرة موقفها ذلك؛ أنهم اعتقدوا أن ابنتهم ربما غادرت المنزل برغبتها، حيث كانت غاضبة آنذاك؛ لأنهم انتزعوا ابنها من حضانتها فخرجت غاضبة.

عشر سنوات والفتاة مخطوفة، ولم تكلف الأسرة نفسها عناء السؤال عنها! إن هذه الواقعة تعكس مدى التفكك الذي تعيشه المدينة الغربية التي انخدع كثير من أهل الإسلام بأضوائها الخادعة، وسرايبها المزيف الذي يحسبه الظمان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.



هذا الموقف الغريب، والذي يمثل في مجتمعنا حالة شاذة، بل وخارجة عن القيم والمبادئ التي اجتمع عليها الناس في جميع طبقاتهم وطرقهم واختلاف سلوكياتهم، هو حالة طبيعية في المجتمع الغربي؛ بل وإن الشاذ عندهم ما كان بعكسها، حيث تجد أسرة تعيش مجتمعة مع بعضها، ولكن كل واحد منهم يتصرف على حسب سلوكياته الخاصة.

هل تتصور أن تصل القسوة أن يتعامل أولئك مع أبنائهم وكأنهم ضيوف، ويكون هذا الشعور هو ذاته الذي يعيش في قلب الصغير، ويكبر معه كلما كبر؛ حيث ينتظر ساعة الرحيل والمفارقة.

بعكس ما ننعم به نحن أهل الإسلام، حيث يعيش الأبناء بكنف آبائهم، يكفلونهم صغارًا، ويرحمونهم كبارًا، ويعينونهم على تكاليف الحياة ما استطاعوا، ثم تكون لهم حياة مستقلة، ومع ذلك تبقى العلاقات الوثيقة والأواصر الشديدة؛ لأنهم قد جمعتهم رحمة الإسلام لا النظر إلى الحياة من باب المادية المجردة.

وإذا تأملت هذه الوقائع بعين العقل والإنصاف، علمت حجم الجريمة العظيمة التي يريد أذناب الغرب أن يفعلوها في ديار الإسلام، ليكون الشتات ظاهرة في المجتمع المسلم، وقطع الروابط والأواصر سمة بارزة له، ثم يفشوا بعد ذلك الانحلال الأخلاقي، حيث لا حسيب ولا رقيب، وقد قطع سلطان الوالد على أولاده، فيكون تعاملهم مجرد لقاءات باهتة، لا تتوقع لو للحظة أن ذلك الشخص يمت للآخر بأدنى صلة.

فَمَنْ علم ذلك حمد الله تعالى أن اصطفاه مسلماً، وجنبه سبل أولئك المنحرفين عن السبيل، وشكر نعمة الله عليه قولاً وفعلاً، وسأل الله بقلب صادق أن يزيده بصيرةً بضلال أولئك الضالين، وأن يزيده بغضاً لهم ونفوراً منهم.

ومن تمام شكر الله على نعمائه أن يتبصر المرء بحيل أذئاب الغرب المنهزمين شخصياً وفكرياً، ويقف لهم بالمرصاد؛ بتفنيد شبههم؛ وردّ الأعيبهم؛ وكشف كذبهم المزيّف على الأمة بدعوى التطور والتحرر، حتى يقودوا أهل الإسلام إلى التجرد مما نشأوا عليه من الأخلاق والمبادئ، فجهاد هؤلاء من أعظم أنواع شكر النعم، وأقل ما يقدمه المسلم لأتمته العزيزة المترابطة؛ حتى لا تنسلخ مما تتمتع به من النعيم الذي اختصها الله به، فتكون تبعاً لأفكار أهل الشك والرّيب والانحدار.

## من دروس الحياة

عملت في بعض أيام حياتي لفترة طويلة في عملٍ يدور فلكه في محيط القضايا الأسرية، وعاشت كثيرًا من القصص التي لو عوملت بحكمة لما آلت نتيجتها إلى آثار سلبية قاتلة، وردود فعلٍ قاسية، حيث تنازع طرفي القضية امرأةً مستبدة عنيدة، ورجل خلا من الحلم والتغافل، فحدثت القطيعة.

ولو أن المسألة انتهت عند هذا الحد لهان الأمر، ولكن صار ما بعد الانفصال تصفية للحسابات، ووسيلة للضغط، مما جعل المرء يتصرف بلا عقل ولا رحمة.

رأيت من النساء مَنْ إذا انفصلت عن الرجل عمدت إلى منعه من رؤية أبنائه، وكأنه عدوٌّ لهم، وليتها تكتفي بذلك بل إنها لا تزال تطرق آذانهم بالقصص والأحداث التي من شأنها أن تسقط شخصية الوالد، وتبغضهم فيه، حتى تملأ النفرة قلوبهم، ولا يعود له وجود في حياتهم إلا ما يكون مسجلًا في الأوراق الرسمية.

وقد رأيت من هؤلاء الآباء من يقتله الشوق، ويجد ألم الفقد جراً ببعده عن أولاده، ولا يملك سبيلاً لتغيير الواقع، فيتعايش مع خلو العواطف، وحسرة الفراق، دون أن يكون قد جنى جناية تؤدي إلى معاقبته بهذا العقاب القاسي.

وأشدُّ ما يكون وقعاً على قلب هذا الوالد أن يكون أبناؤه ليسوا بالصغار الغافلين، بل من الكبار العارفين، ومع ذلك لا يكون منهم موقف جريء للخروج من دائرة الخطأ وعمل الأصح والأصوب في عدم الانقطاع عن الوالد، فإذا رأى الوالد سلبيتهم ازداد جرحاً، لاستشعاره أنهم كانوا وكأنهم ينتظرون حدوث هذا الشيء بفارغ الصبر حتى يقطعوا علاقتهم به، ويعيشون حياتهم الأنانية دون الالتفات لشخصٍ بذل كل حياته وصحته من أجلهم، حتى يبذلوا له شيئاً من العاطفة، فلما كانت بين أيديهم بخلوا بها.

ولعل هذه المرأة التي قامت بهذا الفعل كانت تعاني من القهر مع هذا الزوج، لكن هذا لا يجعلها تعاقبه من خلال أولاده؛ لأنهم ليسوا بعنصر فاعل في القضية، فلماذا يعاقبون بسبب ذنب لم يجنوه؟

وقد يكون هؤلاء الأبناء صغاراً فيحتاجون إلى عاطفة أبوية، وحنانٍ من نوع خاص لا تستطيع الأم مهما فعلت أن تقدمه لهم، فيعيشون لحظات الانكسار بين المجتمع والأقران.

لا بد من فصل أطراف القضية، فما مرّ على الزوجين من الواقع القاسي الذي كانوا فيه، لا يجب أن يحملهم على غير المألوف.

ويجب على الطرف الذي يكون الأولاد بين يديه وتحت رعايته، أن يتذكر دائماً أن ثمة طرفاً آخر يحتاج إلى أولاده، يفتقدهم، ويشتاق إليهم، فلا يكن سداً منيعاً دون وصوله إليهم، فهذا أمر لا ينبغي أن يُغفل عنه.

على أنني كنت دائماً إذا جاءني من هذا حاله، وهذا صنيعه، كنت أنصحه بأن لا يجعل الأبناء وسيلة ضغط؛ لأن بعض الناس إذا سلك طريقاً لن يتراجع عنه، وقد يكون الأب في بداية الأمر كثير الشوق، ثم يتغير حاله، ويتشرب القسوة، وربما يبدأ حياة جديدة مع أسرة جديدة، ولا يلتفت إلى أسرته القديمة، فتكون تلك المرأة أعظم خسارة، فلا هي بالتي أثمرت وسيلة الضغط التي قامت بها، ولا هو بالذي بقي على تواصل مع أبنائه ليقومهم تربوياً، ويشبعهم عاطفياً.

والأقسى من ذلك أن تدرّب المرأة أبنائها على التجرد من العواطف تجاه والدهم، ظناً أنهم سينحازون إليها، فإذا بهم وقد تجردوا من العواطف كلياً، وتشربوا القسوة، فكان أول تطبيق عملي يقومون به تجاه هذه الوالدة التي نسيت أن الدنيا سلف ودين.

فسرعان ما ركضت الأيام، وإذ بالابن قد تزوج امرأة تحتويه فأفاض بعاطفته على أولاده، ودخلت البنت في حياة زوج تشعر أنه والدها المفقود، وإذ بالمعاملة مع تلك الأم تنقلب إلى معاملة باهتة لا طعم لها، وربما قامت صارخة بين الحين والآخر: «إنني فعلت ذلك من أجلكم»، فيجيبها صوت قلوبهم: «بل من أجل نفسك».

لذلك لا بدّ من الحذر من أن ندرّب الناس على فقدان العاطفة، ونسقيهم قسوة القلوب، فربما نصبح نحن ساحة التطبيق العملي لما تشربوه من الدرس النظري.

لا بد أن نعلم أن لكل من الأب والأم عاطفة خاصة، لا تغني عنها عاطفة الطرف الآخر، وله عمل لا يمكن أن يقوم الطرف الآخر بمكانه، لذا كان من الواجب أن يكون الأبناء في منأى عن أي تصرف قد يعود عليهم بالنقص.

لا ندعي أن الأمر سهل، فحفظ النفس قد تُعمي العين وتطمس البصائر، ولكن لو أن المرء حين وقوع الخصام مع الطرف الآخر تعامل بالصبر والحكمة ودعاء الله بالتوفيق، ربما فُتح له بابٌ خير عظيم، وتجاوز هذه المرحلة إلى مرحلة يعرف معها كيف يتعامل مع الواقع الراهن.

وعلى كل حال، فمهما مسّ الإنسان من الضرر والسوء، حتى لو أراد أن يأخذ حق نفسه، فلا بد أن يبتعد عن معاقبة الناس في أمرٍ ليس هو موضع خصومة، لاسيما معاقبتهم في عواطفهم تجاه الآخرين، فإن ذلك من أعظم أنواع الأذى، وأوسع أبواب الشر، لأنه يؤدي إلى قسوة القلوب، وإذا قست القلوب فتحت باب الانتقام، وطمست بصيرة التمييز، وربما شرب المرء من الكأس الذي سقاه الآخرين، وقد كان في عافية.

## ورحلت سارة

لقد آن للجسد المُنهك أن يرتاح.

رحلت «سارة» بعد أن ظهر فيها المرض فجأة وصاحبها على مدى ثلاثة أشهر؛ فشلت معها مساعي الأطباء أن تنقذها من القدر المحتوم الذي لا مفر منه.

قل للطبيب تخطفته يدُ الردى من يا طيبُ بطبه أرداكا

أسأل الله أن يسبغ عليها وابل الرحمة والغفران، وأن يجعل قبرها روضة من رياض الجنة، وأن يعاملها ببره ولطفه وإحسانه.

كانت قويةً رغم شدة المرض، وتلقّت قضاء الله بالصبر والقبول والتسليم، فلم تضجر بسبب ما حلَّ بها من البلاء، ولم تعترض على ما قدره الله وقضاه.

أنفقت جُلَّ وقتها بالذكر والتسبيح، حريصة على صلاتها والسؤال عن أحكام المريض، وكيفية صلاة المريض وطهارته؛ لأنها لم تعد قادرة على مغادرة سريرها الأبيض.

ورغم الألم الشديد الذي كان يعترئها؛ وضيق النفس، كانت صابرة محتسبة.

لقد كانت «سارة» حالة مختلفة عن بنات جنسها منذ أن كانت صغيرة، حملت بين جوانحها قلباً أبيض لا يعرف الحقد، وابتسامة ناصعة بريئة، وتفاؤلاً رغم ما يعترئ الحياة من ذبول قاتل.

وحتى وهي في شدة ألمها، ومع تقرير الأطباء أن حياتها لن تستمر طويلاً،  
وأنها في تدرُّج نحو الأفول، إلا أن الابتسامة لم تفارق محياها، وذلك المزاح  
البريء لم يزل هو طبعها، رغم الألم.

لا زلت أتذكر تلك الطفلة الصغيرة التي كنت أحملها بين ذراعيّ بفرحة  
غامرة، تضحك بين يديّ - وقد كنت صغيراً - فيُخِيل إليّ أن الدنيا تبتسم  
بابتسامتها وتُردِّدِ صدى ضحكاتنا.

وكبرت «سارة»، ولم تزل تلك الطفلة البريئة، تعاني وتصبر، وتُنحَت  
كالجبل فتزداد صلابة، وحتى وهي تعاني من شدة الألم كانت تُخفي ألمها حتى  
لا تُحزن محبيها.

ليس غريباً أن يفكر المرء في غيره حال عافيته، ولكن منتهى العظمة أن  
يتحسَّس المرء أحوال غيره، ويفرح لاجتماعهم حوله، وهو في منتهى الألم،  
والمرض قد أنك قواه.

وهكذا كانت «سارة».

فعلى الرغم من شدة الألم الذي كان يمزق أشلاءها، إلا أنها كانت تُبدي  
سعادتها باجتماع «أعمامها وأخوالها» حولها، وكأنَّ لسان حالها يقول: لقد  
اشتقت لمنظر اجتماعكم حولي، والذي افتقدته بسبب تفرق البلدان ومشاغل  
الحياة، ولو كان الثمن مرضي.

وربما همست في أذن بعض محبيها بهذا الشعور.



كانت تسأل عن هذا، وتطمئن على ذلك، فعاشت لغيرها حتى آخر لحظة.  
والحمد لله الذي جمّلها بالصبر.

فلا أذكر أنني زرتها في المستشفى وسألتها عن حالها فاشتكت إليّ أن هذا  
الموضع يؤلمها، بل كان جوابها دائماً: «الحمد لله أنا بخير».

لقد كانت «سارة» منذ صغرها فتاة صالحة -ولا أزكي على الله أحداً-،  
اهتمت بلباسها الشرعي ديانة لله وإذعاناً لأحكام الشريعة.

وحرصت مذ كانت صغيرة على الصحبة الطيبة في مدرستها، فلم تكن  
تصاحب إلا الخيّرات، ولطالما كانت تحدثني -وهي في المرحلة المتوسطة-  
عن صديقاتها الصالحات «آسيا، عذاري، و..و..»، وما يبذلنه من جهود لإقامة  
المحاضرات الدينية في مدرستهن.

كانت تخبرني بذلك وهي تريد أن تحفزني لألقي محاضرة في مدرستها، وقد  
كان ذلك، وهي من أولى المحاضرات التي ألقيتها في المدارس، فأسأل الله أن لا  
يضيع أجرها ومن سعى في ذلك من أخواتها.

وكبرت «سارة»، أصبحت أمّاً، ولم تنزل بنقاء الطفولة.

وفجأة وبلا مقدّمات، دهمها المرض وهي في ريعان شبابها، وتخلّل أجزاء  
جسمها، وسارع في الانتشار في جسدها حتى بدا وكأنه يسابق اللحظات  
والثواني، حتى توفاه الله تعالى فجر الاثنين ٩ شعبان ١٤٣٢ هـ، الموافق

وكان مما هوّن المُصاب على شدته أنّ الله تعالى لعظيم جوده وفضله ورحمته قبضها وهي مشيرة بأصبعها السبّابة بشهادة التوحيد، فأسأل الله أن يكون لها أوفر النصيب من قول النبي ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»، وأسأل الله تعالى أن يكون ما أصابها كفارة لها، وأن يعاملها بفضله ورحمته وبما هو أهله، إنه هو أهل التقوى وأهل المغفرة.

إنّ القلب ليحزن، وإنّ العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يُرضي ربّنا، وإنا بفراقك يا «سارة» لمحزونون، وإنا لله وإنا إليه راجعون..

لقد رحلت سارة، ولم يبق إلا قصيدة حزينة، وفيض من ذكريات..

أفلت شمس أحبتي وترحلوا      واستوحشتُ دارٌ تن ومنزلُ  
كانوا هنا بين العيون ورمشها      حلّوا ومن بعد المقام تحولوا  
هذي الحياةُ وإن تطاول عمرها      وكذا الزمان توقّف وترجّل  
ودوامُ أحوال الزمان خديعةٌ      والمرء يرغب في السرور ويأمل  
لكنه وهمٌ كبيرٌ ضائعٌ      والهَمُّ يفتك بالقلوب ويقتل  
والمرءُ يطمع في الحياة لعله      يحيى سعيداً في الحياة ويرفُل  
يسعى حثيثاً علّه يجد الهنا      وكأنه لشقائه يتعجّل  
عجباً لمن رام الحياة هنيئةً      كلّفت قلبك فوق ما يتحمّل  
لو دامت الأيامُ صفواً لامرئٍ      أو في السرور لما شكاه الأولُ  
فالبدر ينقص إن رأيت تمامه      والزرع من بعد اخضرارٍ يذبلُ  
وانظر إلى من جرّب الدنيا وقد      سئم الحياة فإذ به يتملّلُ

فانهض وحثَّ السير في طلب العلا  
واعلم بأنَّ العمرَ حُلْمٌ زائرٌ  
واحذر إذا جاء العذول يخدُّلُ  
والمرءُ يجمع في الحياة ويرحلُ  
والموتُ بين الناس أعظمُ واعظُ  
أين الذي يزنُ الأمورَ ويعقلُ  
فالحقُّ بركب الصالحين ولا تكن  
بنجاةٍ نفسك قد ترضن وتبخلُ  
والعمرُ ماضي فاعتنم أيامه  
واللهُ يقضي ما يشاء ويفعلُ

## الكتابة

الكتابة من أفضل ما يتناوله المرء في حياته، لما لها من جميل الأثر العائد على صاحبها مع الأيام.

وكما أن البكاء يبُّلُ فؤاد الحزين؛ فإن الكتابة لا تقل أهميةً ولا شأنًا في ذلك، ولذلك نجد بعض الناس حين تضيق به السبل، وينزعج من ازدحام الناس حوله وعلو الأصوات عنده، وكثرة الأعمال الموكلة إليه حتى تجعله مضطربًا مستنفرًا، يجد راحته بأن يفر ممن حوله؛ ويجلس خاليًا؛ قاطعًا سبل التواصل مع الآخرين، ثم ينفث هموم قلبه، ويخرج زفرات صدره على صفحات الورق؛ يصاحبها نزيف حبر القلم، ليُخرج بعد ذلك كلماتٍ لربما لا تكون عظيمة، بقدر ما تشعره بالراحة، لأنها خففت ضغوطات الحياة، وأطفأت نار الكبت.

ولذا فإنَّ امتهان الكتابة أمرٌ أكثر من رائع، خصوصًا إذا تعلق بالجانب الوجداني، وما ينفذ الناس في شؤون حياتهم وتوضيح سبلهم.

فإنه ومع الوقت، سيكون أعظم الناس سعادة، حين يجد أثر هذه المقالة أو تلك الحروف في الناس، وحتى لو لم يجد لها أثرًا، فإنَّ شعوره بأنه ساهم بعملٍ مشمر؛ يكفي لأن ترسم على محياه السعادة، لإحساسه بأنه بادر إلى فهم ما تأخر غيره في معرفته، وشق الطريق إلى ما تخلف عنه الآخرون.

ويكفي الكاتب شعورًا بالسعادة أنه كلما قلب أوراقه، رأى سنوات عمره بين يديه، ورأى فيها نفسه في فترة من مراحل حياته.

كم هو جميل أن تعطي نفسك فرصة لمحاولة الكتابة ورسم الكلمات. درب نفسك على الكتابة، وشجّع من تحت يدك على ذلك لعله أن يكون له شأن، وإذا رأيت طفلك بدأ يكتب الكلمات المبعثرة على الأوراق، ويكثر التمزيق والعبث، فشجعه بطريقة حسنة ملائمة، فلعله أن يكون بداية مشروع أدبيّ عظيم.

ومن أهم ما ينبغي أن يتعلمه ممتهن الكتابة إتقان طريقتها؛ لأن ما يكتبه هو ما يواجهه به المجتمع، وأن يعلم أن كتاب المرء دليل عقله، وكثيرًا ما يحكم على شخصية المرء من خلال ما يكتبه، فيُعرف أسلوبه ومميزاته وانفعالاته، إلى غير ذلك، فينبغي له عند ذلك أن يكثر النظر في الكتب التي ستؤثر في شخصه وسلوكياته، ويتزوّد بالمعلومات التي ينطلق من خلالها إلى الناس حين التعبير عن مشاعره ودون تكلف.

كما ينبغي للكاتب أن يهتم بقواعد النحو والإملاء وأن يتقن الخط العربي؛ لأن إتقان اللغة أهم ركائز الانطلاق في رحلة ممتعة آثارتها جميلة، وحتى لا يكون عالية على غيره، ثم يكون ذلك مانعًا له من إخراج ما يكتبه؛ وقد يكون ما خطّه أبهى من نفيس الجوهر المستخرج من بطون المحيطات.

فإذا اجتمع للكاتب إتقان العربية؛ مع شعور وجداني صادق يخرج من صميم القلب لا تقليدًا للآخرين، كان له الأثر البالغ الجميل على المدى البعيد، وهذا هو الذي ميّز المقالات النافعة عن المقالات التي ذهبت أدراج الرياح.

وحين تبدأ قطار الكتابة، وقبل أن ينطلق، تذكر أنك مؤاخذٌ بكل ما تكتبه،  
فإياك أن تكون فتنة للمسلمين، أو أن تعمد إلى الهجوم على الشريعة ظناً منك  
أنّ ذلك تقدم وحضارة وحرية، وانظر فيمن حولك ممن رحلوا عن الدنيا وقد  
خلفوا وراءهم كتباً أو مقالات، فمنهم من مات ولا يزال الناس يترحمون عليه  
كلما انتفعوا بعلمه ومقالاته، ومنهم من مات ولم تنزل مقالاته يتوارثها أهل  
الباطل ويستدلون بها، وهي تدعو إلى الانحراف والخروج عن الفضيلة، فرحل  
الكاتب ولم تنزل ذنوبه تتبعه، فما أعظم جرمه.

فاحرص على الخير فيما تكتب، واحتسب الأجر فيما تنشر، وإن نسي  
الناس ما كتبتّه، فإنّه محفوظ عند الله - خيراً كان أو شراً - في كتاب عند ربي، لا  
يضل ربي ولا ينسى.

## كان هنا ثم رحل

كثيرون الذين يمرون في حياتنا، ويشكّلون جزءاً من وقائعها وأحداثها، ولكن قليل أولئك الذين يُفتقدون إذا رحلوا، وذلك أن المرء لا يبحث حين الفقد إلا عمّن ترك أثراً في حياته، وطبع فيها صورةً ليس من السهل أن تشبهها صورة.

يمرُّ في حياتك بعض الأفراد الذين لا يمكن أن تنسى مواقفهم؛ لأنهم تركوا جرحاً عميقاً في فؤادك، أو ألمًا لم تستطع أن تداويه على مرّ السنين، فهذا لا تستطيع أن تقول: إنه رحل، لأنه لم يكن هنا أصلاً!

وفي المُقابل يقف على طريق حياتك شخصٌ ليس بالفرد العادي، ربما لأنه كان سبباً في ترتيب حياتك المبعثرة، وأفكارك المُشتتة، فساهم في وضعك على جادة الصّواب، فانطلقت بفضلِه نحو النّجاح.

لا تُكنْ نظرتنا ماديةً بحتةً، فنظن أن النّجاح متعلق بالدراسة والوظيفة والمناصب، فهذا جزء من النّجاح، وربما يصل المرء إليه دون كدّ وتعب، لكن النّجاح الحقيقي هو المتمثل بأسرة متماسكة، أو شخصية عاطفية من السهل أن يصل إليها المرء دون بذل جهدٍ مضاعف.

قد مرّ بك يوماً أو سيمر بك شخصٌ ساعدك على تمييز الألوان، فعلمت من خلاله أن بعض الألوان رغم زُخرفها تجلب التشويش، وتجعل الأنحاء قاتمة،

ولا أعني بالألوان تلك التي تدور في مخيلتك، بل أعني تشابه وقائع الحياة عليك، فتحتاج إلى مُنقذ.

لا تظنَّ للحظةٍ حينما تقرأ مثل هذا العنوان وهذه العبارات أننا نقصد علاقة غرامية نعبر عنها بألفاظ جذابة، فالأمر أكبر من ذلك، وأعظم من علاقة عابرة، فالذي يكون له أثر في حياتك باختصار هو من تستطيع أن تشبع منه عاطفياً بالدرجة الأولى، وتروي بوجوده مشاعرك، فإذا رحل عنك لأي سبب، نظرت إلى مكانه فقلت: كان هنا ثم رحل، وعلى قدر تأثيره في حياتك سيكون ألم الرحيل.

انظر في أحوال الناس ثم اعتبر، فلم يعرف كثير من الأبناء أثر الوالد إلا بعد رحيله، ولم يعرف الصديق قيمة الصديق الوفي إلا بعد انقطاع العهد بمثله، ولم يعرف الأخ أو الأخت قيمة إخوانهم وأخواتهم إلا بعد تفرقهم في الأنحاء والبلدان، وكلما طال الأمد، كبر الإحساس بالفقد.

رأيتُ بعض الناس -وهذا من علامات الأوفياء- لما كبر عمره وبدأ سن النضوج، بدأ يبحث عن أصدقاء الماضي الذين كانت علاقته بهم مبنية على الاسم فقط دون المناصب والألقاب، فإذا وجدهم ملأ قلبه الشعور بالشعب العاطفي.

كثيرة هي الصور، ومتعددة تلك المواقف، لكن السعيد حقاً هو ذلك الشخص الذي عاش مسالماً في عباراته، ودوداً في معاشرته، حتى إذا رحل وافْتَقِدَ، رأى الناس مكانه شاغراً لا يكاد يُسَدُّ، فقالوا: كان هنا ثم رحل، وكأنهم يعنون بذلك: كم ترك رحيله في قلوبنا من ألم.



## الأمان النفسي

الناس - وإن لم يُظهروا ذلك أو يعترفوا به - يحتاجون إلى الأمان النفسي، وهذا الأمان لا يقتصر على صورة واحدة أو نمط واحد، فكل شخص يعرف ما يحتاج إليه، والسبيل إلى الحصول عليه، ولذلك حينما لا يفوز بما يأمل يعود محبطًا.

حينما ترى الأب وهو يحتضن ابنته الصغيرة، لا تتصور أنه فعل ذلك فقط ليعطيها الحنان، بل ربما أنه يبحث عن الأمان في أحضان طفلة لم تعرف الكذب أو التمثيل.

من أجل ذلك لا بُدَّ للمرء أن لا يضيع الهدف الأصلي حتى يفوت الوقت المحدد له، فيعود بعد ذلك صفر اليدين.

تأملت في أناس كانت علاقتهم بأسرهم باهتة، حيث غفلوا أو أهملوا استغلال الحدث في وقته، فبقيت في صدورهم عبرة كلما رأوا من استغل الفرصة في وقتها ليشبع عاطفيًا.

فهنالك ابنة رأت حاجزًا متوهمًا بينها وبين والدها، فلم تحصل على الحنان في وقته، ولم تستفد من تجاربه وخبراته، بل وربما لم تُعطه ما كان يحتاج إليه

ليعود إليها بستانًا مثمرًا بالفوائد، فلما تجاوزت المرحلة حاولت أن ترتب أوراقها، وتحصل على شيء، لكن لأنه كان في غير وقته جاءت النتائج ضعيفة، وإذ بها بعد فترة كلما التفتت وجدت طعم الحرمان.

وهناك أختٌ لم تستثمر علاقتها بأختها، ومالت إلى الصديقات، ظنًا منها أنَّ الصديقة ستسد مكان الأخت، وأنها سترويها بالحنان الذي تحتاجه، حتى كانت علاقتها بأختها مجرد مشاركة في سكنٍ تحت سقف واحد، مثلها كمثل مجموعة من العمال المغتربين الذين ذهبوا إلى طلب العيش في بلد آخر، فيشتركون في غرفةٍ واحدة طمعًا في تخفيف المؤونة، فإذا رجعوا من العمل في آخر النهار ألقى أحدهم بنفسه على فراشه من شدة التعب، ليقوم في صباح اليوم التالي حتى يستأنف العمل على نمط واحد، حيث لا مجال للحديث ولا تبادل الأفكار والآهات.

ومثل ذلك تلك الأخت التي نأت عن أختها بأفكارها وأسرارها؛ حتى جعلت بينها وبين أختها حاجزًا وعلاقة شبه رسمية، وذهبت تبحث عن الأمان لدى الصديقة التي صار لها مع مرور الزمن حياتها الخاصة، وقد ضعفت العلاقة وأصبحت مجرد ذكرى، فرجعت إلى أختها لتبحث عن الحنان القائد إلى الأمان، فإذا بالوقت قد مرَّ، وإذ بها تحاول أن ترمم ما تهاوى من جدران العلاقة -وربما تحصل على شيء- ومع ذلك تأتي الثمرة ضعيفة؛ لأنها جاءت في غير وقتها.

أمثلة كثيرة، وصور متعددة، نظن أنها ليست بتلك الأهمية، لكن مع تقدم الأيام، ستعرف أن السرَّ في تحقيق الناس للأمان النفسي هو باستغلال الواقع

على حسب حاله الذي كان عليه، فإذا مرَّ زمنه، ربما حاول بعض العقلاء ترميم العلاقات، لكن تبقى الغُصَّة التي لا تُفارق الكثير، وهو أن صاحبه لم يرتو في الأوان الذي يناسب حاله، ولو حاول أن يُكرِّر المحاولة، فسيحتاج إلى شيء كبير من العناء.

ومع ذلك لا يُقال: بما أنه قد مرَّ أوان الشيء فلا داعي للمحاولة، فقد يكون للقاء النفسي بعد تذوق طعم الفراغ القلبي أثرٌ بالغٌ، وطعم جميل؛ لكونه جاء بعد حرمان.

فلا يُقال: لا تحاول أن تعود بعد أن فرَّطت، لكن المقصود استغلال الثمار في أوانها، وإن كنت في بداية الطريق فاستغل الحدث في وقته، حتى يكبر معك ويتنامى، فترتوي عاطفياً، وتشعر بالأمان الذي تشعر به طفلةٌ أَلقت بنفسها بين يدي والدها الحنون.

## الوجوه العابرة

خلال هذه الحياة التي تعيشها، سيمر بك أشخاص ربما لمرة واحدة، ولن يلتقوا بك بعدها، لكن كان مرورهم بك لأنهم احتاجوا إليك في أمرٍ ما، أنت تظنه شيئاً عادياً، في الوقت الذي يروونه من أثقل الأشياء، فلا تستهين بذلك الموقف وتلك اللحظات، فلو لم يكن منها إلا انطباعها في الذهن لكان كافياً، فكيف إذا كان لها ما يتبعها من الآثار الجميلة؟

حين يحتاج الناس إليك لا يدرك في خلدك للحظة أنهم ضعفاء وأنت قوي، أو أنك مكتفٍ وهم محتاجون؛ بل هو تبادل أدوار في هذه الحياة، وسيأتيك الوقت الذي تحتاج إلى غيرك رغم ما تتمتع به من عناصر القوة والتأثير، وستشعر حينئذٍ بذات الشعور الذي مرّوا به.

مشكلتنا دائماً أننا لا نعرف قيمة الشيء ومدى أثره إلا إذا كُنّا أحد أطرافه، والأقسى: أن لا نعرف أثره حتى لو مرت بنا التجربة وكنا أحد أطرافها.

وإذا كانت هذه الحاجة التي نتحدث عنها، مما قد تمرُّ بالإنسان لمرة واحدة أثناء عمره الطويل، فكيف بالحاجة المستمرة التي كلما ظن المرء أنه استقرت فتفتت له من جديد، مع عدم شعور الآخرين به، وغفلتهم عن حاله، حتى يفوت الوقت الموافق لها، فإذا حصلت المؤازرة له بعد ذلك لم يكن لها طعم ولا معنى.

كثير من الناس جعلوا بينهم وبين أقرب الناس إليهم أبواباً موصدة حتى بَخِلُوا بأقل الأشياء كلفة، وهي الشعور بهم، فلما تنبهوا بعد فترة -هذا إن تنبهوا- حاولوا الاستدراك، فإذا المَشَاعِر باردة، وإذا بِحَاجَةِ الآخرين إليهم قد أُشْبِعَتْ من غيرهم، أو ظلت جائعة إلى آخر مدى، مع ما يُرافِقها من الذكريات المؤلمة والخواطر الحزينة.

تلمُّس حاجة الناس إليك ليست مَقْصُورة على المبالغ المادية، أو ضيافةٍ عابرة، هناك أشياء أكبر من ذلك، تتمثل بالاحتواء الوجداني؛ فهو أعظم من المادة وأكبر من الأموال.

رأيت في وجوه بعض الناس انكساراً يعجزون عن الحديث عنه، حتى إذا فاض الإناء وتفجَّرت المشاعر، بثُّوا إليك مقداراً ما في قلوبهم من الجراح، من جحود من تفضَّلوا عليه، وتنكَّرَ مَنْ بذلوا له أجمل أيام حياتهم.

كم كان للحواجز المُتَوَهِّمة بين الوالدين والأبناء، والأخوة والأخوات، من الأثر السلبي، حتى جعلت الحياة تسير بينهم برسومية زائدة، أو بوضع نفسي مضغوط قد ينفجر بأي لحظة، فإذا نظرت إلى السبب الرئيسي وجدت أن أحد هؤلاء الأطراف لم يُعْطِ الآخر فرصة ليبيِّن شعوره ويبيِّن حاجته، ولو أنه فعل لانتهى هذا الواقع البئيس.

أنت لن تعيش مُخَلِّدًا، فليكن ارتباطك بالناس -وخصوصاً الأقربين- من خلال معرفة حاجاتهم، وما الذي يفتقدونه لديك؛ لأنك ربما ستكتشف هذا

الشعور بعد فترة، فتبحث عنهم لتستدرك، فتجدهم قد رحلوا أو استقلوا، ومهما حاولت وبذلت لن تستطيع لذة هذا العمل لأنه قد فات وقته.

إنَّ من أصعب ما يُواجه الإنسان: أن يشعر بحاجته إلى الآخرين، فلا يجدُ مَنْ يفهمه، وحينئذٍ تراه يُفضِّل الانعزال بأفكاره، والانعزال بمشاعره، كثير الصمت، قليل الاختلاط لمن كان يظن أنه سيجدُ عندهم القلب المتسع لمشاعره، فإذا اضطر لمجالستهم اكتفى بأقلِّ ما يطلق عليه اسم الوصل، مع صمت مُطبقٍ إلا بأقلِّ العبارات وأوجز الكلمات.

ولو تأملت جيداً وجدتَ أن سلوك الطريق لم يكن صعباً، لكن البعض أضع سبيل الوصول إليه، فلما حاول العثور عليه، وجد نفسه في بدايته حين بلغ الآخرون نهايته، فاستقروا في أماكنهم، ورسموا حياتهم على وفق منازلهم، وهو يدعوهم اليوم إلى ما كانوا محتاجين إليه بالأمس، وكأن لسان حالهم يقول: أين أنت حينما احتجنا إليك؟، لقد فات الأوان، فلا حاجة لنا بالتفاتك إلينا وقد استقرت حياتنا على ما هي عليه، مع فيضٍ من ذكريات!

## بعد ثلاثين عاماً

خطرت في بالي فكرة، وورد على خاطري وارد، كيف ستكون أحوالنا بعد ثلاثين سنة من الآن؟

ضع نفسك في هذا الشعور لترى ما يمكن أن تؤول إليه حالك، فقد يكون مثل هذا التفكير مساعداً لك على تصحيح وضع، أو ترتيب أوراق، أو تجاوز أزمة، أو ربما ترى أنك قد أعطيت بعض الأمور اهتماماً بالغاً، أو أهمية تحولت مع الوقت إلى مرض، ثم ستعرف أنها بعد مضي ثلاثين عاماً لن يكون لها أهمية، إنما هي في حقيقة الحال جمع لهموم مختلفة، ورفع لمستوى الضغط النفسي الذي يجعلك مُنهأراً ضعيف القوى.

بعد ثلاثين عاماً، سيكون بعضنا أثراً بعد عين، وخبراً بعد أن كان حقيقة، وذكرى بعد أن كان وجوداً، هذا إن تذكره أحد.

سيرحلُ بعضنا عن الحياة، ويقدم على الرؤوف الرحيم، وكأنه لم يكن يوماً شغل حيزاً في هذا الوجود الشاسع، ومع هذا فقد يكون له ذكرى في أذهان الآخرين لكونه شخصاً إيجابياً، قدّم ما يستحق أن يذكره به الناس، من لطف، وإحسان، وصلاح، وحرص على مصالح الآخرين، أو أي أثرٍ يستحق أن يُذكر من خلاله، أو أنه ورث ذكرى مُزعجة في أذهان الآخرين، لكونه لم يستثمر ما عاشه من

أيامه في عملٍ ينبغي أن يُشكر عليه، بل كان اسمه قرينًا للذكريات البائسة التي تعلقَت في أذهان المتواصلين معه.

وقد يكون أهون حالًا من ذلك، حيث يكون مروره هادئًا، فهو وإن لم يترك بصمة مميزة إلا أنه على الأقل لم يؤذِ أحدًا.

بعد ثلاثين عامًا، وإن قُدِّر لبعض الناس أن تسير حياته بسلام إلى حدٍّ بعيد دون عقبات، رغم ذلك سيعتريه تغيُّر الزمن، وتقدم السن، ويكفي أن تتخيل أن طفلتك الجميلة ذات السبع سنوات التي ملأت الدنيا زهوًا وجمالًا، سيكون سنها سبعة وثلاثين سنة، وحينها ستقول في نفسك حين تتخيل ذلك: ما أسرع الأيام!، فكيف بمن كان عمره الآن أربعين سنة، فسيكون عمره بعد ثلاثين سنة سبعين عامًا، هل تخيَّلت ذلك؟

قد يؤخِّر بعضُ الناس كثيرًا من المشاريع إلى الغد، فإذا بالغد يصيرُ شهرًا، ثم سنوات، حتى دَهَمَةُ السبعون عامًا - هذا إن مرَّت بسلام دون أمراض وأزمات كبيرة-، فإذا به وقد نسي عمره، فلم يحقق طموح الشباب، ولم يعيش بسلام، بل قضى عمره يخطط لبناء بيتٍ أو تجارة، أو شراء بستان، أو.. أو.. وفي خضم ذلك بقي يعيش الضغط النفسي من وراء هذا التفكير حتى منعه من الاستمتاع بحياته؛ لأنه أجَّل سَعَادَتَهُ حتى يَحْصُلَ له ما يريد، فلما حصل له -هذا إن حصل- جاءه وقد ضَعُفَت قواه، وتعب بدنه، وعَجَزَ عن تذكر ما مرَّ به من أحداث الأمس، فكيف بمن لم يحقق هدفًا أصلاً، إنما بقي بين الأفكار والتوهمات حتى أفَلَّتْ شمس الشباب، وتبخرت مع ذلك الأمنيات.



حين تتخيل مُضي ثلاثين عامًا على حياتك زيادة على سنك الحالية، ستعرف كم من الأمور التي حمَّلتها لنفسك فوق طاقتها، وتسببت بقتل لحظات الفرح، وكأنك قد عَقَدت العزم على أنك لن تمارس السعادة إلا إذا حصل لك ما سعت لتحصيله، فإذا بلغت ذلك العمر الذي تخيلته لم تشعر بالفرح؛ لأنك خلال هذا الطريق الطويل الذي سعت خلاله إلى تحصيل ما توهمته من أسباب الفرح، تغيَّر طَبْعُكَ، وأصبحت امرأً جديدًا حتى في أماكن اللين واللهو، وكَسَوْتَ قلبك رداءً قسوة الطباع، وحين بلغت الهدف لم تستطع أن ترجع إلى طبيعتك الماضية؛ لأن اللين، والسماحة، والبساطة، كانت قرينة لحياتك الخالية من المسؤوليات، ولما بلغت ما أردته من تحصيل هذه الأسباب، قارَنَ ذلك تغيُّر الطبع حتى لم تعد قادرًا على الشعور بالسعادة؛ لأنك فقدت الطبع القديم المرن القائد إليها.

بعد ثلاثين عامًا، سيكثرُ الندم على كثير من المواقف التي مرت بنا، حيث يستشعر المرء أن ذلك التصرف كان غير مناسب، وردة الفعل تلك كان مبالغًا فيها، وأن تفويته لتلك الفرصة كانت غلطة عُمُر، وأنَّ خصامه لفلان وإساءته لفلان كان تصرُّفًا قاسيًا، وكان بإمكانه أن يتصرف بطريقة أخرى لا ينتج عنها ردة فعل عنيفة.

بعد ثلاثين عامًا، العاقل سيعيد ترتيب أوراقه من جديد، ومع ذلك قد يسعفه الوقت والوضع ليصحح ما بدر منه من الهَفَوات، وقد لا يتمكن من ذلك بسبب

أن الأفراد رحلوا، أو تغيروا، أو صعُب التواصل معهم بدنياً أو قلبياً، أو لأنهم كانوا سيقبلون منه تلك المبادرة قبل ثلاثين عاماً؛ لأنهم كانوا محتاجين إلى بذله آنذاك، فلم يُعد له الآن قيمة، حين جاء في غير أوانه، وإلى غير أهله.

لقد ضربت المثل في ثلاثين عاماً حتى تعرف ما يمكن أن يكون في مدة مؤثرة على حياة الإنسان، تمرُّ عليه كنائم استيقظ فيذ به يعاين واقعاً جديداً عليه، وربما يدعوه ذلك إلى التأقلم على واقع لا يرغبه أو يلجأ إليه مضطراً، فإذا كان ذلك فلا تؤجل حياتك إلى ما سيكون بعد زمن، وعش حياتك الحالية، ولا تتصرف بمواقف إذا مرَّ بك زمن طويل ندمت عليها، وكن مُسالماً مع نفسك قدر الإمكان؛ لأنك ستكون في يوم من الأيام مجرد شخصية عابرة في حياة الآخرين، حتى الزوجة والأبناء، فلا تُهلك نفسك وتجمع إليها الأمراض بحُجَّة أنك تريد أن توفر لهم حياة سعيدة، هذا إذا كان في حق الأولاد والزوجات، فكيف إذا كان لغيرهم من البشر الذين ربما لن تُمثل في حياتهم ولا مجرد ذكرى.

كُن مُسالماً مع نفسك، أعطِ ما يجبُ عليك، وتفضّل بزيادة على ذلك، ولكن لا تُرهق نفسك، فإنك ستعرف بعد ثلاثين عاماً أنك كنت تسعى في مُحيط كنت ستصل من خلاله إلى نفس النتيجة دون أن تقتل نفسك، فأنت تسير في أمور مقدّرة من الله، مطلوب منك أن تسعى لا أن تقتل نفسك، فبسبب سعيك الحثيث قد حمّلت نفسك همّاً، ومع ذلك لم تتجاوز ما قدّره الله لك.

تأمّل جيداً ما يحدث بعد ثلاثين عاماً من الآن؛ فإنك ستتصرف بتلقائية وهدوء، وستبتعد عما يورثه التفكير والتخطيط والهموم من الضغط الذي يهدم

صحتك، ويتعب فكري، وأفضل ما يوصلك إلى تصور ما سيحدث بعد ثلاثين عامًا، أن تتأمل فيمن بلغها فعلاً، اسمع منه فإنه سيتحدث عن نفسه وما حصل له من الأزمات، وما خسره من الأصدقاء، وما بناه من المواقف على سوء ظن، وما قطعه من علاقات بسبب ردة فعل مبالغ فيها، وما أفنى فيه عمره فيما يظن أنه سيكون سبباً في سعادته، فلما حصل له ما يريد من تجارة أو مال أو جاه فإذا به قد فقد من يمارس معهم أسباب السعادة من ابنٍ كبير، وابنة تزوجت، وزوجة تقدمت في العمر وتعير تفكيرها.

فإذا وجدت من بلغ هذا العَدَدَ الزمني، وتجاوز السنوات، ورأيتَه يتحدث عن ذلك الزمن الذي مرَّ به، فلا تُفوّت على نفسك فرصة الاستماع إليه بجميع مشاعرك، فإنما هو في حقيقة الحال يصف حالك بعد مرور ثلاثين عامًا من الآن، فاستدرك أنت ما فاته هو بتصحيح مسارك قبل أن يمرَّ بك الزمن فتحدث غيرك بما فاتك أنت، وتكرر نفس الخطأ الذي وقع فيه، فلا يلزم أن تقتصر استفادتنا على التجارب التي مرَّت بنا، فقد يمرُّ بنا أشخاص يمثلون حالنا لو أخذنا ذات الطريق الذي سلكوه، فإذا علمنا أنهم سلكوا الطريق الخطأ، حولنا مسارنا إلى طريق آخر، طمعاً في تحقيق حياة -على أقل الأحوال- نسلم فيها مما يؤذينا.

## سبيل الراحة

لعل من أصدق علامات النُّضج: أن المرء كلما تقدم به العمر مال إلى الصمت، فتجده لا يدخُل في أي نقاش، ولا يستهويه أي موضوع، ويكون غالب أحواله الاستماع، بل وأشد من ذلك أن يدور حوله الحديث في أمورٍ يعرفها ويخوض الناس فيها بالخطأ، ومع ذلك يكتفي بالاستماع، فلا أدري أهى حالة مَلَل من الكلام، أو أنه يرى أن الناس قد أصدروا الحكم قبل النقاش، فلا يرى فائدة من الإدلاء برأيه، أو أن الأمر فيما يراه يحتمل وجهات النظر؟

ولذلك حين يتقدم بك العُمر، ستذكر كثيرًا من المواقف التي أضعت فيها وقتك، وأتعبت ذهنك، وكثر فيها ضجيجك وضجيج الآخرين من حولك، لو رجع بك الزمن لكان دورك فيها كواقفٍ على ضفة نهر، يشير بالسلام إلى أهل الناحية الأخرى دون اقتراب.

كم مرَّت بنا من مواقف بدَّلنا فيها أنفس الأوقات في نقاش عقيم قد تحدَّدت نتيجته قبل أن يبدأ، فأهدرنا طاقاتنا، وتحركت من خلاله الضغينة على بعضنا، فعلمنا حين بلغنا درجات النضج أنه لا يستحق كل هذا العناء، أو لعلنا خسرنا شخصًا كنا نستطيع المحافظة على صداقته ووده، لو أعطيناه فقط الفرصة ليتحدث ونحن نستمع.

قد لا يدرك المرء أهمية هذا الأمر إلا عندما يكبر، وتغشاه حالة من السكينة، فيعود ليحسب الأرباح والخسائر، ثم يقوم بعد ذلك بخطوات ربما يستطيع من خلالها ترميم الماضي المتصدع بسبب لا شيء.

كنت أظن -كغيري-: أن الحديث عن فضائل الصمت أمر عادي أو مبالغ فيه، فلما بدأت مرحلة من مراحل النضج فيما أرى، علمت أثر هذا الصمت في العلاقات الاجتماعية، فقد يكثر الخوض حولك في موضوع ما فتصمت، فيغلق باب من الخلاف كان بينه وبين أن يفتح أن تتكلم.

وقد يأتي إليك من يشتكي همًا، وينفجر أمامك بصوته العالي، وكأنه يشتكي إليك أنه لم يجد من يفهمه، فتصمت طويلًا وتستمع إليه، فتجنبه مشكلة حلها عسير، وقد لا تقدم إليه حلًا أو تدلي إليه بمشورة، ولكنك ستعلم بعد مدة أن مجرد استماعك إليه دون مقاطعة كان هو الحل الأمثل لمشكلته، فقد كان يريد فقط أن يستمع إليه أحد، ليُخرج الزفير الحار المحشور في داخله حتى يرتاح.

كنت أظن أن الاستماع للآخرين لا يُمثل شيئًا في حياتهم، فوجدت أن كثيرًا من الناس يعدون ذلك من فضائلك، فالقلوب تحترق من الداخل بنار قد أغلقت حولها الأسوار، فإذا استمعت إلى صاحبها خرجت ألسنة اللهب، فبرد الجوف.

وقد رأيت من الناس من يأتي إليك بمشكلته التي تعلم من أول كلمة أنه ليس لها حل أبدًا، إلا بخسارة فادحة من جميع الجوانب، وقد يرى هو أيضًا أنك لا تملك حلًا لمشكلته، ومع ذلك إذا رأى صمتك واستماعك إليه باهتمام، إذ به

يتحدث بكل تفاصيل مُشكلته، ويسهب في الحديث دون انقطاع، حتى يصل إلى الشعور بأنك قدّمت إليه حلاً لمشكلته، على أنّ الأمر ليس على هذه الصورة ولكنك قدمت إليه بعض ما يحتاجه باستماعك، في الوقت الذي لم يجده عند غيرك، أو يجده لكن عند شخصٍ يستمع إليه دون اهتمام بالأمر، حيث يستمع وهو مُقبل على أمرٍ آخر، فيزيد ذلك المتكلم همًّا إلى همّه.

ولا تستغرب، سيُمر بك شخص ليُشاورك في أمر قد عزم على التعامل معه بطريقةٍ ما، ومع ذلك يقترب منك ويحدثك بأمره لحاجته إلى الحديث.

ستدرك كلما تقدّم العُمر أنّ الصمت فضيلة وراحة، وسيمر بك كثير من المواقف تتنازل فيها عن حق واضح لك، مقابل أن تسلم على صفاء ذهنك وهدوء نفسك، ولا تجد إلى ذلك سبيلاً إلا بمزيد من الصّمت، فإذا انقشع الغيم علمت أن ما خسرت لا يُمثل شيئاً بالنسبة لما ربحت.

وسيُمر بك أناسٌ تستغرب من تلقيهم للأمر بكل برود، فتتهمهم بالسلبية، لكن ستعلم حين مُرورك بذات المرحلة التي مروا بها لماذا هم فعلوا ذلك، فقد أدركوا أنّ كثيراً من المَعارك لا تستحق أن نكون من عداد جنودها؛ لأنّ الرابح فيها لم يظفر بشيءٍ، والخاسر قد خسِرَ راحته وهدوءه، ولذلك فقد رأوا من الحكمة أن يصمتوا إيثاراً للسلامة، وكفى بها غنيمة.

## استمتع بمن حولك

في هذه الحياة، نقابل أناسًا يكون لهم في حياتنا أبلغ الأثر، يحضرون فيملاًون حياتنا أنساً وسروراً، ويذهبون فنشتاق إليهم، فكل ما حولنا يُذكّرنا برسوم منازلهم، وكلما طال أمد الغيبة عظم الشوق في القلوب، فإذا مرّ ذكرهم تحرك القلب واضطرب، كطفل رأى أمه بعد غيبة، فتراه يقفز فرحاً حتى لا تكاد تسعه الدنيا.

مثل جميع البشر الأصحاء، تتحرك قلوبنا لأناس مرّوا في حياتنا، فاستوطنوا تفاصيلها، ساعة ساعة، ولحظة لحظة، فلما تفرقنا لأيّ سببٍ كان، كبر الشوق وصاحبه الألم.

قد تكتشف بعد زمن أنه حتى الجميل من الذكريات قد يتحول إلى قصة ألم، حيث تتمنى أمراً، ولكن الواقع لا يُسعِفك.

لا تكن نظرتنا ضيقة حينما نقرأ مثل هذه العبارات، فنتصور أنّ مثل هذا الكلام مقصور على علاقات الغرام الموهوم، فالأمر أوسع من ذلك، فقد تفتقد أباً، أمّاً، صاحباً، أخاً، أختاً، قد اجتمعت معهم على صفيو وودّ، ثم كتب الله أن ينتهي التواصل إلى الأبد بسبب الرحيل المُقدَّر، أو يضعف لأيّ سببٍ ما، وهنا ستعرف معنى الشوق، وتجد أنك كلما حاولت أن ترتوي حين لحظات اللقاء، سرعان ما يشتد ظمؤك إذا غابوا عن عينيك.

قد لا تعرف أن الأشواق قاتلة، إلا إذا كنت ممن يداوم على مُصاحبتهَا، فإذا أردت أن تطفئ لهيبها الذي يحرق فؤادك إذ بها تتقد من جديد.

مساكين أولئك البُساء الذين لم يشبَعُوا ممن حولهم، يظنُّون أن وجودهم في حياتهم أمرٌ عاديٌّ لا جديد فيه ولا مزيَّة، فإذا ذهبوا إذ بحياتهم تزداد ظلمة وخوفًا من القادم المجهول.

ولو تأملوا في أحوال الذين يعيشون حولهم وقد افتقدوا الأشخاص الذين كانوا يستمتعون بهم، لعلمُوا الانكسار الذي يسكن في قلوب أولئك الفاقدين، في الوقت الذي توفر لهم هم ذلك الواقع العاطفي الحنون، لكنهم فرطوا فيه.

لا تكن حياتك باهتة، استمتع بمن حولك من الأشخاص الذين تحبهم ويحبونك، ومُدِّ إليهم جسور التواصل، ولا تُشيد الحواجز المتوهمة فيما بينك وبينهم، فإذا ذهبوا من حياتك كبرت حسرتك، وعلمت مقدار الفقد.

ينبغي الاستمتاع بمن حولنا من الأشخاص الذين يملؤون حياتنا دفئًا، كما نستمتع بأجمل الأشياء التي نرى لها أجمل الأثر في تغيير نفسياتنا حتى تبدو سعيدة مستقرة.

والحذر من أن نفرط بلحظات الأنس التي تمرُّ في حياتنا زهدًا فيها، وأملًا في الحصول على واقع أجمل، فلا نحن بالذين حصلنا على ما نأمل، ولا نحن بالذين سلمنا على الواقع الجميل الذي لم نعرف قدره حتى صار من عداد الذكريات.



## كسر القلوب

مع هذا الكظيظ من الزحام، حيث ازدحمت الطرقات بالأشخاص، وكثرت العلاقات والمعارف التي تولد عنها كثرة الاحتكاكات والمواقف، أصبح كثير من الناس على جاهزية الاستنفار، ومهيئاً للانفجار، وأصبحت قلوب الكثير ظمأى إلى جرعات من لطف، فتستثيرها المشاعر، وتؤثر فيها أدنى كلمة، ويهيجها أدنى ردة فعل.

مع كل هذه الأوصاف، يأتي من يتصرف مع الآخرين وكأنهم خلوا من الأحاسيس، أو أنهم يملكون مشاعر متجمدة، فيمارس معهم ما اعتاده من فظاظة ألفاظ، أو قسوة طباع، دون أن يعلم ما الذي يمكن أن ينتج عن فعله ذلك.

لا أدري، هل أصبح كسر خواطر الآخرين هواية عند بعض الناس حتى ذهبوا يمرحون ويسرحون بين شعاب قلوب الآخرين، ليحدثوا فيها جراحاً قاتلة واضطراباتٍ مزللة؟

ألا يعلم هؤلاء أن كسر القلوب ككسر العظام، كلاهما يحتاج إلى أن يجبر، ويصعب جبره؟

كم يبخل الكثير في جبر القلوب المنكسرة، على أن هذا الصنيع ربما لا يكلفهم إلا كلمات يسيرة قد لا تتجاوز الكلمتين يوصل صاحبها من خلالها رسالة مفادها: إنني أفهمك.

مما لا أشك فيه أنه وعلى الرغم من أن جبر الخواطر لا يُكَلِّف إلا كلمات يسيرة في الغالب، وأحياناً فعل يُعبّر عن مدى الإحساس بالآخرين ولو لم يصاحبه كلام، ورغم سهولة ذلك إلا أنه يُمثّل تميّزاً خاصّاً، وحالة نادرة لا يدركها إلا مُوفّق؛ لأنها تعكس نفوساً عظيمة، وقلوباً كبيرة، استشعرت ما يدور في حياة الآخرين، وما تخلّل حياتهم من الانكسار، وكأن هذا الألم الذي حلّ بها، قد وقع على قلوبهم هم.

لا تستهن بجبر خَوَاطِر الناس، فربما بكلمة واحدة تُغيّر حياة شخصٍ كان على حافة الهاوية، وبكلمة منك أعدت له تماشكه واتزانه، فثبت على طريق الصواب.

تعترى بعض الناس -وإن كانوا أقوياء- حالة من العجز، فيحتاجون إلى كلمة تدعمهم، قد تيسّر على لسانك فتعيدهم إلى استجماع القوى. وقد يكون المرء عاقلاً متزناً، لكن تغشاه حالة يُعاني بسببها من الشتات الذهني، فتأتيه كلماتك كالبلسم الذي يداوي جراحه، فيقوم من جديد ليواصل مسيره.

ضعفاء نحن وإن رأنا الناس أقوياء، فإنّ ثمة ضعفاً داخلياً يسكن قلوبنا في بعض الأحوال، حتى لا نملك قراراً ولا قراراً، بل ترى أحداً يتلّفَت يَمَنّة وَيَسرة كالمنتظر لمن يدفع إليه برأي أو مشورة، حتى ينهض من جديد.

وأنت حين تُعاني مثل هذا الاضطراب، ستعرف قيمة الكلمة اليسيرة التي جبرّت خاطرك، وتثمن موقف من تلفّظ بها، ليس لأنك عاجز على كل حال، ولكن لأنها أتت على حين حاجة إليها.

فإذا رأيت مَنْ أَكْثَرَ الصَّمْتِ، وبدأ شاردَ الذهن، مُشْتَتَّ الفكر، وقد سَنَحَتْ لك  
الفرصة لمعرفة ما أَهَمَّهُ، فسارع إلى ميدان الفضل، ومقدمة السبق، بكلمات تجبر بها  
خاطرَه، فإنك يوماً ما ستكون في مقامه، وستعرف أثر هذه الكلمات الداعمة لك  
لتماسك وتُعيد ترتيب أوراقك، ولو تفوَّه بها إليك طفل!

## الآمال

جلست في مكان مرتفع تمرّ قريباً منه أفواجٌ من السيارات في بداية كل صباح، حيث ينتشرون إلى أماكن العمل اليومي، فسرح فكري مع سائقي هذه المركبات، كيف يفكّرون، وما الهدف الذي يسعون إليه، والشيء الذي يريدون تحقيقه؟

سيارات تسير في طريق واحد، لكن تحمل في داخلها آمالاً كبيرةً وأمنيات مختلفة، ومسارعة إلى الانجاز، قبل أن يأتي آخر فيشغل المكان ويفوز بالوقت الفاصل بين حصول الشيء وعدمه.

ولما نقلت هذه الصورة إلى واقع الناس، وجدت أننا هكذا نعيش، وعلى ضوئه نتعامل، نحمل الآمال ثم نسعى إلى تحقيقها، وقد نصل أو لا نصل.

فمركب يصل إلى مقصوده، وآخر أضاع الطريق فلم يصل، وآخر أخذ مساراً آخر فلما حاول الرجوع فإذا بالوقت قد فاته وفات معه فرصة تحقيق المراد، وهناك آخر في أثناء سيره بدا له أمرٌ، وخطر في باله خاطر، فقرر أن يأخذ مساراً آخر، طمعاً في الحصول على فرصة أو واقع أفضل مما كان قد خطط له، وقد يحصل له ما يريد أو لا يحصل.

فأنت حين تنظر، ترى طريقاً واحداً يسير عليه أناسٌ كثير، لكن في أثناءه تتشعب المسارات والمخارج.

وهكذا هي الآمال، تختلف باختلاف المسالك، يسير المرء على طريق لتحقيق هدفٍ ما؛ ربما لو أكمله حصل له ما يريد، وفجأة تجده وقد أخذ طريقاً آخر، ظناً منه أن فرصة الفوز من خلاله أكبر وأفضل.

بل وإنك ترى طريقاً كنتَ تظن أن لن يطرقة أحده؛ لأنه شاقٌ ووعير، ومع ذلك فقد سلكه أفراد من الناس، لِمَا وقع في نفوسهم أنه لن يتحقق الهدف الذي يحلمون به إلا من خلاله.

وقد يرى بعض الناس طريقاً مما يُزهد فيه، ظناً منهم أن هذا الطريق لن يصل بسالكه إلى محطة، ومع ذلك تجد من يسلكه ويسير عليه، حتى يحقق هدفه من خلاله.

حين تعرف هذه الحقيقة وتتصور هذا المثال الذي ذكرته، ستعرف حينئذٍ أن أفكار الناس تختلف باختلاف آمالهم، ومع ذلك فمن المؤكد الذي يجب أن يبقى منحوتاً في القلب أن وجود الآمال لا يعني بالضرورة حصول ذات النتيجة التي كنا نتصورها أو نحلم بها، فمردُّ الأمر بالتالي إلى الله سبحانه، فقد يبسر للمرء مبتغاه، وقد يمنعه منه لحكمة منه ورحمة، فقد تكون نهاية الإنسان ودمار حياته فيما كان يحلم بالوصول إليه، ورأى في ظاهر الأمر أنه من أسباب نجاحه وهناء حياته.

ليس عيباً أن يأمل المرء بأن يعتلي سُلّم النجاح، وأن يحصل على أسباب التقدم، لكن الواجب أن لا يُوسّع سقف الآمال والأمانى، حتى إذا لم يحصل

منها شيء، أو حصل له شيء أقل مما كان يطمح به، عاد منكسراً لا يقوى على ترميم نفسه وترتيب أولوياته من جديد.

فالواجب عليه أن يسعى إلى ما يريد، دون أن يهلك نفسه بتحميلها ما لا تطيق أثناء السير إلى الهدف، أو بالتضجر والتشكي إذا لم يحقق هدفه؛ لأنه في هذه الحالة ستعظم الخسارة جدًّا في إرهاق نفسه بكثرة اللوم حتى يؤثر ذلك على صحته، ويخسر هدوء نفسه وراحة قلبه، وهذه هي الخسارة الحقيقية، لذلك كم من البائسين الذين فاتهم شيء من الأهداف الدنيوية، فلم يقوموا بإعادة الكرة أو تغيير المسار، بل وقفوا يلومون أنفسهم ويقتلونهم كمدًّا، حتى خارت قواهم، وضعف تفكيرهم، وبينما الناس الذين سقطوا معهم استأنفوا العمل ونجحوا، أو على الأقل جربوا نشوة التحدي، إذ بهؤلاء قد وقفوا عند نقطة الخسارة، فلا حصلوا على هدف، ولا أبقوا على رأس مال.

جميل أن يسعى المرء إلى تحقيق طموحه، ويستثمر أفكاره ليحقق منها نتائج النجاح، لكن لا بُدَّ أن يعلم أن النجاح أمرٌ نسبي وليس دائماً مرتبطاً بالنتائج، فالنتائج بيد الله، فقد يحصل له ما يريد أو لا يحصل، ولا شك أن من درجات النجاح خوض التجارب، وطردهم الفخر الذي يظنه في نفسه أو يظنه فيه الآخرون، كما يجب أن لا تغيب عنه حقيقة مهمة، وهي: أن الاستثمار الحقيقي يكون في محافظته على نفسه في صحته ومبادئه وتحدي شعور الفشل، فليس الفشل في خسارة الأرباح التي كان يتوقعها، بل الفشل الحقيقي هو

الجلوس دون همة، والاكتفاء بسبب الواقع، في الوقت الذي تسابق الفائزون لحصد الجوائز.

ومع كل هذا، فمن المهم حين السير إلى تحقيق الآمال والتطلعات، أن لا تنظر إلى تحقيق الربح المتردد بين البقاء والتحول، وتنسى رأس المال الحقيقي الذي يجب المحافظة عليه، وهو الارتباط النفسي بأقرب الناس إليك، والمتمثل بالأسرة: الوالدين الملاصقين والزوجة والأبناء، حتى لا يلهيك عنهم السعي خلف الآمال، فإذا رجعت إليهم لم تجد منهم أحداً، لأنك جئت في الوقت الخطأ، فتجد أبدأناً دون أفكارٍ متقاربة، قد عاش كل واحد منهم مع أفكاره وتطلعاته، فتوقن حينئذ أنك أضعت الهدف الأصلي الذي يروي جفاف قلبك، ويرطب حياتك.

وعليه، فاسع إلى تحقيق آمالك، ولا تنس مهماتك الأساسية، ولترتاح نفسياً ضع في مخيلتك دائماً أن الواقع أصدق من الآمال، وهذا مما يدفعك أن تسير نحو ما تخطط إليه بهدوء، فإن حصل لك ما تريد فخير، وإن لم يحصل فخير.

## ابحث عن نفسك

جميل جداً؛ بل ومن المُهم بمكان: أن يجعل المرء لنفسه محطاتٍ يقف عندها بين فترة وأخرى، فيحاسب نفسه برفق وأحياناً بحزم، ينظر فيما سبق من أيام حياته، يتأمل فيما جَنَاه من ثمرات، هل كانت مناسبة لعظيم ما سعى من أجله، وبذل فيه أوقاتاً مهمة من أيام حياته، ويقلب صفحات الخسائر التي حلت به، وكيف تُعوّض؟

لا تنظر إلى الثَّمَرَات والخَسَائِر في باب الأموال فقط، بل بنظرة شاملة للعلاقات والسلوكيات التي من شأنها أن تربطك بالآخرين، أو تقطع حبال التواصل.

جلوسك مع نفسك وتقليب أوراقك الماضية من أعظم أسباب النجاح الشخصي، وهذا لا يعني بالضرورة أنك قد تستطيع استدراك كل ما فاتك، لكن يكفي أن تشعر أن نفسك قريبة منك إذا أردت أن تصل إليها فعلاً؛ لأن كثيراً من الناس بينه وبين نفسه وحشة قَطَعَت حِبَالَ التواصل، وجعلته غير قادر على تغيير بعض السلوكيات الظاهرة أو الخفية، فتجده يشعر بالفشل، حتى ولو حقق شيئاً من النجاح الظاهري.

تحتاج أن تجلس مع نفسك دون مشوشات حتى تستطيع أن تعرف ما تريد، لأنك إذا عرفت ذلك بلغت السعادة الداخلية التي حُرِم منها الكثير، حتى كان



هذا الشعور عنصرًا فعالاً في إسقاطهم، فالحياة مضمرة حرب مع الأحداث، ولن تستطيع أن تقابلها بجيش مضطرب لم يستطع أن يوحد صفوفه تجاه الهدف، وهكذا النفس في معاملة الأحداث، لا بد أن تجمع لها عناصر القوة حتى تحقق بغيتك.

كنت أسمع من قبل أن المرء يجب أن يحاسب نفسه دائماً، وتخيلت أن المحاسبة تعني الحرمان أو القسوة، فاكشفت أن المحاسبة أن تعاتبها بلطف لأنها أحب ما يكون إليك، فإذا كنت هادئاً استجمعت شتات فكرك، وعرفت كيف ومتى ستستأنف العمل دون أخطاء.

صدّقوني، نحتاج نفوسنا، نحتاج أن نخلو بها دون ضجيج الآخرين، وحينئذ سنكتشف كم كنا أنانيين حين لم نمكّننا، وسنسمع عتباً شديداً منها يقول: أين أنت عني منذ زمن؟

مشكلة الناس دائماً في التصور الخاطيء أو الناقص، فينظرون دائماً من ناحية الربح المادّي، والتجارات المالية، فينطلقون نحو محاسبة أنفسهم من خلال نظرة تاجر، والأمر ليس كذلك، فانتفاعك بنفسك أكثر ما يكون من خلال السلوك والمشاعر القلبية، وتحقيقك لشخصية كنت تراها في ذهنك أو أمامك، فتقلها إلى أرض الواقع من خلال نفسك.

دائماً اجلس مع نفسك لتجد المتعة، تفقد حالتك مع ربك سبحانه، هل قمت بحقه أم لا؟ فهذا رأس السعادة.

راجع علاقتك مع الأشخاص، فهناك من تحبه ويحبك وقطعت معه حبال الوصل، ليس جحوداً لكن بحجة الانشغال في الحياة، وهناك من جرحته بكلمة

بسبب موقف لا يستحق كل هذا التشنج، فنتحتاج أن نتعذر منه حتى تعاود الاستمتاع بعلاقة جميلة كادت أن تنقطع كلياً ومثلها لا يُفَرِّط فيه.

وهناك علاقة كانت سبب دمارك، أو ألحقت بك خسائر فادحة على مستوى الشخص والأُسرة والمجتمع، فتكشَّف لك من خلال جلوسك مع نفسك أنَّ مثل هذه العلاقات يجب أن لا تكون في حساباتي، وليس لها محل في حياتي، فمع اللحظة التي تقطعها تكون قد وضعت قدمك على أول خطوات النجاح.

ومما يُعِينُكَ على اكتشافِ نفسك أن تلغي حاجز الصدِّ المَبْنِي بينك وبين بعض الأشخاص العقلاء الرَّقِيقِينَ الَّذِينَ يُحِبُّونَ لَكَ الْخَيْرَ، فَإِنَّكَ حِينَ تُمْكِنُهُمْ مِنْ نَفْسِكَ سَيَنْصَحُونَكَ وَيَنْبَهُونَكَ عَلَى أَخْطَائِكَ أَوْ عَلَى سَبِيلِ نَجَاحٍ غَفَلْتَ عَنْهَا، فَيَكُونُونَ عَوْنًا لَكَ عَلَى الْوَصُولِ إِلَى نَفْسِكَ الْمَفْقُودَةِ.

ولذلك احذِّرْ أَنْ تَفْعَلَ فَعَلَ الْغُلَاطِ الْمَتَكَبِّرِينَ الَّذِينَ لَا يَقْبَلُونَ مِنْ أَحَدٍ رَأْيًا، وَلِذَا تَجَدَّهُمْ مِنْ خَطَأٍ إِلَى خَطَأٍ وَمِنْ سَقُوطٍ إِلَى سَقُوطٍ؛ لِأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا يَحْتَاجُونَ أَحَدًا لِيُشِيرَ عَلَيْهِمْ، فَحُرِّمُوا السَّعَادَةَ الَّتِي لَا يُمْكِنُ وَصْفُهَا، وَهِيَ الْقُرْبُ مِنَ النَّاسِ وَالْإِنْبِسَاطُ لَهُمْ، وَالتَّمَتُّعُ بِالْهِنَاءِ النَّفْسِيِّ.

ولذلك تجدُّ أولئك المتواضعين حتى في حالة الخطأ أو فوات ما كانوا يطمعون به، تجدهم مُنْشَرِحِي الصِّدْرِ؛ لِأَنَّ الشُّعُورَ بِالرِّضَا قَلْبِيَّ أَكْثَرَ مِنْهُ ظَاهِرِيَّ، فَكَيْفَ إِذَا جُمِعَ لَهُمُ الْأَمْرَانِ: أَشْبَعُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْمَشَاعِرِ،

ونجحوا في السعي الظاهر، وشواهد الحال تبين لك أن أكثر الناس حرماناً هو المتكبر الذي بنى بينه وبين الآخرين سدوداً لا تُخترق ولا تُتسلق، حتى إذا احتاج إلى إشباع نفسه بالعواطف، فإذ بالناس قد أخذوا مواقعهم، فمن يلتفت إليه؟!!

لذلك تفقد أحب الناس إليك وهي «نفسك»، لا تهملها حتى يفوتك قطار الزمن، ولا تكتشف ذلك إلا بعد فوات أوانه، فإذا مضى ذهبَت لتغوص في بحر الأمنيات: «ليت وليت».

اجعل نفسك قريبة منك، اخلُ بها بين أوقات وأوقات، واستشر من تحبه وتعرف نصحه، فإن الفوز الحقيقي هو أن تفوز بنفسك، في الوقت الذي ترى فيه الكثير قد خسروا أنفسهم ورفعوا راية الهزيمة والانكسار.

## الأب.. الجندي المجهول

تأمّلتُ في حالٍ كثيرٍ من الآباء الذين يعيشون حولنا، واستمعت إلى شكواهم وأثّاتهم الحارّة، حتى ترسّخت لديّ قناعةٌ لا تقبل الزحزحة أو التحريك، وهي أنه لن يعرف المجتمع قيمة الآباء إلا بعد فقدهم، ولن يتصوروا مقدار ما يبذلونه من جهد وعناء لتحقيق الأمان لأُسْرِهِم، وتذليل العقبات أمامهم حتى يسعدّوا بواقع مطمئن، إلا إذا رحّلوا عنهم.

كتبت ذات مرة عبارة في أحد المواقع مفادها: «تعزية إلى الآباء المُناضِلين، لا تقتل نفسك كمداً وحسرة، فلن يعرف الأبناء أنك رجل عظيم حتى ترحل عن الدنيا»، ربما تكون هذه العبارة لامست ما في قلوب بعض الآباء، لكن الأجل ما أبلغني به صديق أنّ ابنته قرأت هذه العبارة فقالت له: أتدري يا أبي؟ إنني أخاف فعلاً أن أفقدك!، فأنا أرى دائماً في حالات الوفاة حين تكون المتوفاة امرأة، يقولون: «أرملة فلان»، فغالباً ما يكون الرجل هو السابق، فأنا أخاف أن ترحل وتركنا!

حين أخبرني بمقولتها تلك قلتُ له: هذا لأنّ الرجل يتحمّل جبلاً من الهموم المُتراكمة، والضغوط النفسية، حتى يغزوه داء الضغط المسمى: «القاتل الصامت»، وهو لا يشعر، فإذا به وقد طرّحه المرضُ فصار خبيراً بعد عين.

لا نُقَلِّل من مسؤولية الأم وما تتحمله من مهمة عظيمة في بيتها، لكن حينما تنظر إلى المجتمع - ونحن منهم - تجد أنهم يثمنون عطاء الأم وإن كان قليلاً، ويشكرونها على القيام بمسؤولية التربية لأولادها مع أنه من صميم عملها وواجبها، بينما لا يثمنون للوالد بذله، وإن كان من الكماليات والتحسينيات، فضلاً عن الواجبات.

الوالد هو الجُندي المَجْهُول في معركة الحياة، الذي يَصُدُّ العَدُوَّ عن أهل داره، ويسعى لتأمين حُدودهم، وتهيئة الأرضية التي يعيشون عليها سُعداء، ومع ذلك هو يعمل بِصَمْت، وَيَتَّيْنُ بخفية، وربما يُجرحُ عَشْرَ المرات حينما لا يرى تثنياً لمواقفه العظيمة، ولو من خلال كلمة لطيفة، ومع ذلك تجده مُستمرّاً في سعيه، مقبلاً على عمله، ويرى أن هذا من صَمِيم واجباته، ولو لم يكن واجباً فعلاً...!

وفي آخر المطاف، يكبر الأبناء، ويعيش كل واحدٍ منهم حياته، وقد لا يلتفتون إلى الوراء لينظروا إلى سُلَّم الأعمال التي قام بها ذلك الأب، فيزيده جرحاً وألماً أن يبقى وحيداً فقيراً إلى الإشباع العاطفي الذي لا يُكَلِّفهم شيئاً، ومع ذلك تجد الكثيرين يَبْخُلُون به.

وأصعب ما يكون في هذه الحلقة الدائرية الكبيرة، أن يكون الأب غير قادر على إبداء مشاعره، لعلمه أنه لو تكَلَّمَ لن يجد مَنْ يفهمه، أو يرى الآخرون أنه يبالي، أو يمتنع عن إبداء مشاعره؛ لأنه يرى من المعيب لمثله أن يطلب ما هو حق فطري له.

ولأنَّ الحياةَ دائرةٌ كبيرة، ونقطةُ النهاية بالنسبة إليها هي نقطة البداية، تجد أن بعض أصحاب العقول النيِّرة والقلوب المبصرة، سيكتشفون هذه الحقيقة حينما يكونون في ذات الموقع، ويتحولون من مقام الأبناء إلى خانة الآباء، فيعلمون حينذاك مقدار ما تحمَّله الأب، وعظيم ما فعله، وسرَّ صلابته الخارجية بالرغم من رفته الداخلية، وحاجته النفسية للحنان واللفظ، لكن من المؤسف أن يتأخر اكتشاف ذلك إلى الوقت الذي اعتاد المرء فيه على نوعية من العيش وتأقلم معها، فلو جئت لتبذل إليه ما كان محتاجًا إليه يومًا من الأيام، لن يكون متلهفًا عليه رغم فقدانه، بسبب أنه قد فات وقته.

ربما تستغربُ أنني كنت أقول لبعض الناس الذين شرعوا ببناء بيت مستقل لهم ولأسرتهم: اجعل الغرف متقاربة، لا تُقسَّم بيتك إلى أدوار؛ لأنَّ البُعد يزيد الشتات، وسيأتيك زمن يفيض فيه حنانك، فتريد أن يكون الأبناء أمامك لتشبع منهم، ويشعروا بدفء حنانك، كثيرٌ من هؤلاء لم يقتنع، فلما مرَّ به الزمن، رأى أنَّ ما أشرُّتُ به عليه كان هو عين الصواب، وعاد ليقول: وسَّعت البيت، باعدت بين الغرف، بدأت الاستقلالية المتوهمة، ضعفت العلاقة، حتى إنَّه ليمرُّ على ابني أو ابنتي الأسبوع وأكثر، فلا أراه ولا أسمع صوته وهو معي في نفس البيت.

قد لا يكون هذا من باب القطيعة، لكنه من باب اللامبالاة، حتى إذا رحل ذلك الأب العظيم الذي كانوا يعتمدون عليه في أمور حياتهم، وصدموا بمواجهة الواقع بعد رحيله، وتكلفهم كثير من الأمور الشاقة التي كان يحملها عنهم،

عرفوا آنذاك كم كان عظيمًا، ومقدار ما كان يُقاسيه، زيادة على ما كان يجرحه من اعتقادهم بأن ما يقوم به أمر عادي لا يستحق الاحتفاء.

لا شك أن مُدبّر الأمور هو الله سبحانه، وهو الذي يجري الأمور بحكمته ورحمته، لكن الأب القائم بشؤون أسرته هو ملاذ الأبناء بعد الله، حيث لا ينقطع همُّ تفكيره بأبنائه إلا مع توقف قلبه، ومع ذلك كله يجب أن يكون بذله لله، ويطلب جزاءه من الله، وأن يُعزّي نفسه دائمًا - إذا قام بواجبه - بأن يملأ قلبه قناعة بأنه رجلٌ عظيم، وأنه كغيره من الآباء لن يعرف أهل البيت قيمته إلا إذا ترجّل راحلاً.

فإذا كان الأمر كذلك، فلا ينس في خضمّ هذه الأحداث، وكثرة البذل والعطاء للآخرين، أن يجعل لنفسه جانبًا من الاهتمام، فيعطيها ما تستحقه من الراحة كمكافأة لها بعد طول كدٍّ وعناء، ولا يحصر نفسه في زاوية الشكوى والأنين، فجميلٌ أن يُعطي المرء بسخاءٍ ماديًا وعاطفيًا، لكن في الوقت ذاته لا بد أن يكون لنفسه جانبٌ من العطاء، ولا تتوقف حياته على تثمين الآخرين لجهوده، فإذا لم يرَ منهم ذلك قاده ذلك إلى الشعور بالإحباط.

قد لا يشعر الناس بقيمتك، وهذا مما يجرح قلبك ويؤلمك، ولكن ما دامت نفسك بين جنبيك فحقّق لها بعض ما تطمع به، حتى إذا ما أرادت أن تُعاتبك يومًا على جفائك معها، سليتها بقولك: ربما أعطيتك بعض ما تستحقّين.

## العلاقات المتموجة

يفرح المرء حين تربطه علاقة صداقة ووثام مع شخص يُحبه ويألفه، وذلك أنّ القلوب يُحاصِرُها الجفاف بين فترة وأخرى، فتحتاج إلى نبع صافٍ لترتوي منه، فتتجدد بها الحياة، وما أجمل في هذا المقام من صديق ودود قريب من النفس، وزيادة على ذلك ثابت الموقِف، يقوم على أرضية صلبة، ليست هشة ولا آيلةً للسقوط عند أول هزة أو حركة.

وحينما تنغمس في الحياة وتتوغل في أحداثها على طول الأمد، ستكتشف أنّ هذا المطلب ليس سهلاً، بل إنّ تعب الوصول إليه، على قدر جمال الحصول عليه، على أنه قد يحصل عليه المرء في حالات فريدة دون بحث ولا كد ولا تعب، ولكنه امتنان من الله ﷻ.

وفي المُقابل ترى بعض الصداقات رغم حاجة الإنسان إليها، وصبره على ما يُكدر صفوها، ترى صاحبها في عناءٍ شديد بسبب تقلب مزاج الصديق، فمرة ساحة خضراء، ومرة صحراء قاحلة، ولذا لا يستقر بها الإنسان؛ لأنها علاقة متموجة، تحكمها ردود الأفعال التي لا شأن للصديق بها، وكأنّ صاحب هذا الطبع المتقلب جعل صاحبه محطة لتفريغ شحنات الغضب التي تعتريه.

لا يحسن بالمرء أن يحصر نفسه في زاوية يتوهم أنها صداقة، فلا ينال من ورائها إلا العناء وتعب القلب، والحياة قصيرة ليس فيها من الوقت ما يكفي لبرمجة شخصياتنا وقلوبنا ومشاعرنا على حسب طباع الآخرين.



من المفترض بالصديق أن يكون ملجأً لصاحبه، وأن يفهم كلامه وإشاراته قبل أن يتكلم، فإذا تحدث صاحبه لم يضع في مخيلته التساؤلات المعنفة للنفس: «أخشى أن يفهم على نحو سيئ، أخشى أن يظن أنني أقصد كذا فيضيق صدره»، فمثل هذا الشعور يجعل المرء دائم القلق، لا يتكلم بما يريد دون محاذير، ولو انطلق فإذا بالاعتبارات لفلان أو فلان تجعله محبطاً في طرحه، حتى إن ذلك يظهر جلياً على طريقة ألفاظه.

ونحن وإن كنا نقول للصديق الذي لا يريد أن يخسر صاحبه: ما الذي يلجئك إلى مصاحبة من طبعه قائم على المزاجية، والناس يُعني بعضهم عن بعض، ويسد بعضهم فراغ بعض؟ ففي المقابل يجب أن نرسل رسالة لمن قامت علاقاته على المزاجية والاستنفار: هل تفكرت في حقيقة سلوكك؟! ألم تحدثك نفسك أنك قد أصبحت ثقيل الطبع؟ ألا تخشى أن ينفد صبر الآخرين فيبتعدوا عنك، فتعيش في عزلة عن السعادة التي لم تقدرها حق قدرها؟

يجب أن يقف الإنسان دائماً ويحاسب نفسه، علاقتك مع الآخرين لا شأن لها فيما يحصل لك من مواقف مزعجة أو أحداث محزنة، واتصالك بالآخرين ومعاملتك الحسنة معهم ستحتاجها لملء فراغك العاطفي، ولذلك فمن جميل ما يحفظ به المرء ارتباطه بالآخرين أنه إذا رأى من نفسه في وقت ما أنه معكر المزاج، وأنه لو خالط صاحبه وجلساءه قد يصدر منه تصرف يكدّر صفو الوصل والألفة، فأفضل علاج هو أن يعتزله حتى يُلملم شعث فكره وشتات رأيه.

وهذا لمن كان ثابتَ القَدَمين على مبدأ واحد، وأما من لم يَزِدْه الأمد إلا ثباتاً على طبعه ببناء علاقته مع الآخرين على حسب مزاجه، فهذا هو الخرق الذي لا يُرْفَع، والجُرح الذي لا يلتئم، وعلى العاقل إن ابتلي بأحد هؤلاء أن يبتعد بنفسه عنهم، ولا يكن كخاطب الود عند من لا يحبه، والراكض خلف من يهرب منه، فإن اختار مُصاحبة مثل هذا ظناً منه أنه سيتغير طبعه، فقد بنى علاقته على أساس هسٍّ قد يهوي به في حال اعتماده عليه، فإذ به قد أصيب بمقتل.

## لن يفهموك

جميل أن تحدد لنفسك هدفاً، ثم تنطلق نحو تحقيقه، لكن ينبغي لك أن تعلم أن من أسباب النجاح أن تُبادر إلى ما عزمت على فعله، وأن تمضي إليه قدماً ما دام صواباً.

وكن على يقين أنك كغيرك إذا انطلقت نحو غاية لا بُدَّ أن يعترضك بعض الناس بكثرة الأسئلة والتعليقات، أو ردّات الفعل غير المبررة، فلا يشيك ذلك عما عزمت عليه، ولا تُضع وقتك في الدفاع عن نفسك في كل موقف، فهذا نوع من الانهزامية، وسيكون على طول المدى معوّقاً عن بلوغك الهدف الذي ترمي إليه.

الناس لن تُنصفك في الغالب، المستفيد منك وغير المستفيد، فلست مُلزماً أن تبرر لكل أحدٍ لِمَ فعلتَ أو امتنعتَ.

قد لا يدرك الناس عمق التفكير الذي تتمتع به، وطول النظر الذي تتصف به، فما الهدف من الشرح المُطوّل الذي يأخذ من وقتك حتى ينطفئ نور همتك؟، بل وقد يأخذك إلى دائرة اليأس والقلق حتى تدبل، ويجف منبع الهمة والطموح الذي يتفجر داخلك.

أنصف نفسك، فالناس لا ينصفون.

أستغربُ من بعض الآباء الذي يخطط كل شيء لمصلحة أبنائه وهم لا يعلمون، ثم يأتونه مهاجمين يبحثون عن تبرير، ومع ذلك يقف أمامهم موقف الضعيف المُنكسر، ويكدر راحته ببذل الوقت الطويل والجهد الكبير، من أجل إقناعهم بما سيعلمون مع مرور الزمن أن الوالد كان ناصحًا لهم أشد النصح، لكن لا يعلمون ذلك إلا بعد دفعه لضريبة ذلك من وقته وصحته وتفكيره.

جميلٌ أن تكون هناك مشاركة من قبل الغير لأفكاري وخططي، لكن من غير المناسب أبدًا أن يبقى المرء مترددًا غير قادرٍ على اتخاذ قرار، فالصواب أن تدعو الله بالتوفيق وتستخيرته في أمورك، ثم تمضي إلى ما عزمت عليه.

كثير من الناس إنما أتعب نفسه لكونه رهن عقله لتفكير الناس، وهذا خطأ، فمن غير المعقول أن تجعل الآخرين يُخططون حياتك وكأنك لا وجود لك، أظن أن هذا فهم مغلوط لمعنى المشاورة، خصوصًا إذا كان من تشاركه في أمرك له مصلحة فيما تطرحه عليه من أفكار، فهو في الغالب ينظر إليها من باب ما يستفيده هو من سعيك، لا من ناحية الأصبوب من الخيارات التي تعرضها عليه.

لا أدري ربما أن عمق تفكير بعض الناس يجعلهم كثيرًا ما يشعرون بصعوبة المضي فيما يريدون القيام به، نظرًا لضعف تصور من أمامهم عن بلوغ مستوى عقولهم، ولذلك يجب عليه ليشعر بالراحة، أن يتوجه إلى عمله الذي أقدم عليه دون إضاعة الوقت فيما لا ينفعه، فالناس جُبلوا على حُب المشاركة، ولذا تجد كثيرًا مما لا شأن له في أمر ما، تجده أول المسارعين بإدلاء رأي أو فرض وجهة نظر، أو الغضب إذا لم يؤخذ برأيه، وعلى اختلاف درجات العقول تكون ردود

الأفعال، فإذا علمتَ ذلك، وجب عليك أن تتفكّر جيداً، كم عندك من العمر حتى تهدره من أجل التوضيح لفلان، أو التبرير لفلانة؟

إلى متى يعيش المرء وهو يرى من أولويات حياته التبرير للآخرين عن أفعاله؟ لماذا استولى هذا الشعور على البعض حتى أذهب رونق حياتهم، وكَدَّر سعادتهم؟

عش كما أنت، تمتّع بحياتك، وتعامل مع المواقف بسهولة دون تعقيد، لا تشغل نفسك كثيراً في الشرح للآخرين عن أسباب اختيارك أو وجهات نظرك، لن يفهموك في الغالب، وإن فهموك كان من خلال بوابات حياتهم، وميل طباعهم، فرجعت وكأنك لم تُقل شيئاً، ولم توضح مُلتبساً.

صحيحٌ أن المرء يحيا من خلال القيود العامة للمجتمع، فلا يتجاوز المؤلف، أو يتعدى على العُرف، لكن هناك أمورٌ لا يلزمه أن يفتح على نفسه من خلالها أبواب الآراء والتدخل الذي يُضيق حياته.

اجعل لنفسك مساحة رحبة خالية من القيود، بحدود الضوابط العامة، ثم تصرف بأريحيّتك.

ارسم طريقك، وحدد اتجاهك، والجبأ إلى الله بطلب التوفيق والسداد، ثم امض إلى ما تريد، ولا تجعل ضجيج من حولك يمنعك من الوصول إلى ما تصبو إلى تحقيقه، فالضجيج يُشوش الأفكار، ويزيد الآلام، ويقطع الآمال.

واحذر من الوقوف عند كل محطة لاحت لك برؤية أو رأي، بل مُرّ بها سريعاً، فليس كل محطة تستحق التوقف أو الانتظار.

## الألم

في هذه الحياة، تختلف الآلام بِقَدْر ما تتنوع الآمال، وكل امرئٍ لا بُدَّ أن يناله نصيبه من الألم، بين قليل وكثير، وخفيف وثقيل، بل وحتى المرء الناجح الذي حصد نتيجة سعيه، لم يبلغ هذه المنزلة إلا بشيءٍ من الألم، إلا أن أَلَمَ هذه المرحلة سينسأه حينَ فوزه بمطلوبه.

ومع تفاوت الآلام، فإنَّ من أشدّها وقعاً على النفوس، أن يفني المرء عمره في طريق يظن أنه هو الصحيح، فلما ابتعد به المسير، علم أنه كان على خطأ، فيحاول الاستدراك، فما يُسَعِفُه وقتٌ ولا تُعينه قوة، مثله في ذلك كمثل متسابق أجهد نفسه بالجري في مضمار المدينة، فلما نظر خلفه لم يرَ أحداً من المنافسين، وواصل السير مسرعاً، مع شعوره بالسعادة أن تفرّد عن المتسابقين، فلما ابتعد ولم يمكنه الاستدراك اكتشف أنه كان يجري في الطريق الخطأ، وتشعبت به سكك المدينة، فوقف محبطاً قد بردت عظامه، وأكلت قلبه الحسرات: أبعده هذا الجري الطويل كنتُ في الطريق الخطأ؟! ففكّر أن يعود من جديد ويستأنف الانطلاقة، ليس من أجل الفوز، بل كنوع من التبرير لنفسه أنه كان مجتهداً، فإذا به قد فاته ما كان يطمح به ويطمح إليه.

أرأيتَ هذا المقدار من الألم؟!!

ربما كان هذا من أقسى أنواعه وقعاً على النفوس، وأشدّها فتكاً في القلوب، وربما أنّ هذا النوع هو أكثر ما يُعانيه الناس، لكن لن يشعروا بوقعه الأليم، ويتذوقوا طعمه المؤلم، إلا حين بلوغ الوقت الذي يظنون أنهم سيحصدون فيه الثمرة، فإذا بهم وقد رجعوا يضربون أحماساً في أسداس.

لكن وبالرغم من اكتشاف هذه الحقيقة المؤلمة، ومعاناة الخسارة، لا ينبغي للمرء أن يُعلن الاستسلام، وعليه أن يخلق له واقعاً جيداً ولو كانت الثمرات ضعيفة، وأن يلتمس له طريقاً وإن كانت الطرق متشعبة، فقد يكون هذا الألم الذي حصل له، يفتح له باباً لم يكن له أن يدخله إلا من طريق هذا الألم، فهو الذي دلّه عليه، وصدّمه واقعٌ جعله يُعيد التفكير فيما كان منه، فأبقى نتيجة سعيه القديم على حالها، وبدأ برسم انطلاقةٍ جديدة وحياةٍ أخرى تقوم عليه وحده؛ لأجل أن يعيشها هو دون أن يشاركه أحد ممن كان يظن أنّ سعادته لا تكتمل إلا به، ولن تستمر إلا معه، فإذا باكتشافه لحياته الجديدة يُبرهن له أنّ سرّ الجمال في بعض مراحل الحياة أن تعيشها وحدك، مع إشراكٍ ثانويٍّ قليل لمن حولك أحياناً.

فلا تُحبّط إذا مسّك الألم، ونالك التعب، ومما يُسلِّيك في ذلك: أن الكثير يشاركونك مثل هذا الواقع، ومع ذلك استمرت الحياة؛ لأنها باختصار لا تقف على أحد، وهذا هو السرّ الذي من أدركه أعاد ترتيب أوراقه، وعلم أنّ الخاسر الحقيقي بفوات سعادته وقوته ورونقه هو نفسه، فرجع إليها بما يكون سبباً في بعثها من جديد، وطوى صفحات الذكريات المؤلمة ما استطاع، وبدأ زمن المتسابق الطموح في المضمّار الصواب.

## الميل إلى الصمت

رأيت كثيراً من العقلاء إذا تقدم عمره يبدأ بالميل إلى الهدوء، ويمتحن الصمت، كأنه بذلك يُريح ذهنه من كثرة الضجيج الذي ملأ حياته طوال سنوات فائتة من عمره، ولم أدر حينها - وإن كنتُ علمت ذلك فيما بعد - ما الذي يجعل المرء يمتطي سهوة الصمت؟ أهو معاقبة لنفسه لكثرة ما تكلمت فيه من مواضيع أصلية أو فضولية، فرأى أنها قد أخذت كفايتها من الحديث، فلا بد أن تعطي الآخرين الفرصة للحديث عن أنفسهم، إنجازاتهم، بل وحتى كلامهم المزعج الذي لا يُعلم تحت أي نوع يُصنّف.

أو أن يكون هذا الصمت بسبب أنه لم يجد مَنْ يفهمه إلا القليل، وحين لا يجد ذلك القليل في مجلسه مال إلى الصمت؛ توفيراً على نفسه أن يبث مشاعره إلى من لا يفهمها، أو نثر جواهره أمام من لا يعرف قيمتها فيعود بائساً حَسيراً، ولذلك رأى أن الصمت أنجح من الكلام.

كنا نقرأ ونسمع كثيراً عن فوائد الصمت ومدح العقلاء له، وكيف تسبب لأصحابه بأن بلغوا درجات السُّودد، ولكن لن نكتشف حقيقة هذا الكلام حتى يكون الصمت سلوكاً ميدانياً لك، فحينئذٍ تعرف الأمر على حقيقته.

الناس في كثير من مواقفهم يحتاجون إلى قليل من الكلام وكثير من الصمت، ولذلك كان أقرب الناس إلى الناس هو الذي حين يلجؤون إليه يعطيهم الوقت



الكافي للحديث عن كل ما يريدون دون مقاطعة، حتى ولو كان كلامهم من النوع المَكْرَر؛ لأنهم وجدوا من ساعدتهم ليطفئوا الحريق الملتهب في داخلهم حين باحواله بكل ما يريدون، فهدأت أنفُسهم بسبب ذلك.

ولا يعني ذلك أنه قد أوجد لهم حلاً لما يعانون منه، لكنه قد قدّم لهم علاجاً آخر تمثل في الاستماع إلى أحاسيسهم المتعلقة بالألم، وقد ذكر علماء السلوك النفسي أن استماعك لحديث امرئ بما مرّ معه من الأحداث المؤلمة أو الآلام المُزعجة، أهمُّ لديه من تقديم حلٍّ لِمَا عَرَضه عليك؛ لأنه ربما كانت المشكلة الأصلية التي يعاني منها أصلاً هي أنه لم يجد من يستمع إليه، فيحتاج إلى أن يُلقى بهذه الأثقال التي يحملها فوق ظهره فيرتاح منها.

الصَّمتُ أعظم الأبوابِ إلى الأحاسيس والفهم، وحين يعرض عليك أي موقف استمع ولا تقاطع، واصمت طويلاً، وحينئذٍ سيتبين لك موضع الخلل وطريق الخلاص منه، وفهم الأشخاص، سواء ذلك في باب المواقف والمشاعر العامة، أو الأعمال والمسئوليات الخاصة، فإن المقاطعة والضجيج والحرص على الكلام وإسكات المُقابل، سبب للغفلة عن بعض الجزئيات التي عليها مدار الحكم وقيام الوقائع.

لا تتصور حين تُعرض عليك واقعة ما أنها مُشكلة يجب عليك أن تحلها، حيث إنَّ بعض المشكلات ليس لها حلٌّ؛ لأنه لا توجد مشكلة أصلاً حتى نحتاج إلى البحث عن حلٍّ لها، وإنما هي أحاديث يحتاج أصحابها إلى من يستمع إليهم، ربما تكون أحاديثهم هامة أو من فضول الكلام، أو على الأقل قل: أحاديث

مجالس كما هو حال أكثر المجالس، فالناس يريدون أن يتحدثوا فيحتاجون إلى من يستمع إليهم، وقد توسموا فيك هذه الخصلة، فلا تخذلهم.

الصمت أمام الآخرين علامة على سعة التفكير، وعظم القلب حتى استوعب هموم الناس وآلامهم، فارتاحت نفوسهم إليه، فإذا استشعروا الضيق والألم تلفتوا باحثين: أين فلان؟

ويكفي به سعادة: أن الناس حين تعظم همومهم يرونك المرفأ الآمن، والشاطئ الهادئ، والحضن الكبير، الذي يتخلصون من أثقالهم عنده.

لا أنكر أن الناس يستفيدون من صمتك كثيرًا، حيث يضمّدون جراحهم بسبب عباراتك المرتبة بعد صمتك الطويل واستجماع فكرك، لكن أيضًا أنت في المقابل قد استفدت فائدة عظيمة؛ حيث إنك في فترة الصمت قد جال فكرك في ذات نفسك، فاكشفت مواضع النقص وسبل الكمال، أو على الأقل تحقيق الأمان والهدوء، فسارعت إلى أسباب ذلك، ففزت بما تحب في الوقت الذي خسر فيه كثير الكلام أضعاف ما ربحته أنت بسبب أنه لم يُعطِ نفسه فرصة ليصمت حتى ينكشف إليه سبيل الفوز والظفر فيسارع إليه.

## لن تكون لك كما تريد

الذي يعيش في هذه الحياة لن تغيب عنه حقيقةٌ لا تحتاج إلى اكتشاف، وهي أنه لن تكون له الحياة كما يُريد، فلا بُدَّ أن يتعرض لأنواعٍ من المِحْنِ على اختلاف درجاتها ما بين شديد ويسير، وتفاوت رُدود الأفعال نحوها ما بين منتصر ومهزوم.

حينَ تنظرُ إلى أحوالِ بعض الناجحين، سيتضح لك جليًّا أنه لم تكن حياتهم سهلةً مُيسَّرةً على كل حال، بل ربما سترى بشكل واضح أن ذلك النجاح الذي حقَّقه خرج من واقعٍ مليءٍ بالألم والمعاناة، لكن الذي فعلوه أنهم لم يستسلموا، بل جاهدوا حتى حوَّلوا ذلك البلاء إلى قصة نجاح، رغم غُصَّات الألم التي تعترى حديثهم المملوء شَجَنًا.

لا شك أن ما يصلُ إليه المرء من نجاح وتقدُّم هو توفيق من الله، ولكن من أسباب ذلك تمتع الإنسان بشخصية لا تهتز لأدنى موقف، فيبقى على إثره قابلاً في مكانه يُفكر: لمَ كان هذا؟ ولمَ حصل ذلك؟ بل سرعان ما ينظر إلى الغد، وتشغله رغبة بلوغ الهدف عن ردَّة فعل ستمنعه من المُضي قدماً نحو غايات المجد.

ستجد يوماً من يسعى إلى تحطيم ذاتك، ويحاول أن يُثنيك عن تحقيق حلمك، بقصد أو بغير قصد، وسيكدرُك ذلك، ويضيق صدرك بكلامه، لكن ثق أن حلاوة الفوز بالمطلوب، ستُنسيك ألمَ كَلِمَاتِهِ، فاجعل نظرك متجهًا نحو تحقيق مرادك، ولا يشغلك الالتفات إلى كلمات أقصى أثرها لا يتجاوز الكلام.

كم عانى أناس من كلمات المُخَذِّلين حين رأوهم يسيرون في بداية طريق النجاح، حتى أيقنوا في داخل نفوسهم أن هذه العبارات بمثابة الحرب المُوجَّهة إليهم من أجل قتل طموحهم وفتِّ عزيمتهم، فاستجمعوا قواهم وتجاوزوا آلامهم، فبقوا متماسكين، سائرين على الطريق حتى وصلوا، في الوقت الذي انهار غيرهم عند أول كلمة، فجبنت نفوسهم عن المواجهة، وذبلت رغبتهم في تحقيق ما يطمعون به، فبقوا عند نقطة البداية التي تحوَّلت مع الأيام إلى مجرد فكرة.

لا شكَّ أن الظفر بالمطلوب وتحقيق الأهداف من أجمل الأمور وقعًا في النفوس، لكن الشعور الأجمَل أنك لم تحقق هذا المطلوب إلا بعد عناء، وتجاوز الكثير من العقبات التي وُضِعَتْ في طريقك لتمنعك من تحقيق ذلك، والأجمل من ذلك كله أن تحوَّلت تلك العقبات نفسها إلى سبب لنجاحك.

ستمرُّ بك أشياء كثيرة تحاول منعك من وصولك إلى القمة، فلا تسمح لها بأن تكسر عزمك أو تنخر قوتك، فإنك إن وصلت إلى ما تريد، ستنظر إلى نفسك نظرة الفخر أنك لم تنهزم، ولم تُسلمها إلى عدوِّ جامع حَسود، أراد قتل طموحها حتى تبقى قابعة في الفشل.

لا تستسلم في معارك الحياة التي يخوضها الكثيرون معك ولا يعلمون لِمَ فعلوا ذلك؟ وستعلم وأنت تتقدم نحو المجد، أنَّ الحسدَ من أن تبلغ مبلغهم، أو فشلهم من أن يصلوا إلى هدفٍ ما حتى بقي لهم مجرد حلم مع انكسار

نفوسهم، جعلهم يندفعون إلى منعك من الوصول إليه، وكأنهم يرون في شخصك تذكيراً لما أصابهم من الفشل، فلا يشغلك ذلك، واستعن بالله، وامض في طريقك فإنه يُوشِك من سار على الدَّرب الصحيح أن يصل إلى مُبتَغاه، فينسى كلَّ ما مرَّ به من تعب عند أول خطوة يضعها على القمة.

## الأسرة

حين ينعم الله عليك بأفراد يجتمعون حولك في كل وقت، ويشملهم مسمى «الأسرة»، لعلك تظن أن هذا أمر عادي؛ لأنك اعتدت على وجوده، وترى أنه شيء لا يحتاج إلى كل هذا الاحتراف والاهتمام، لكن لو نظرت إلى هذا الوجود من خلال أعين المحرومين منه، لتيقنت حينئذ بأهميته، وأبهرك جمال بنائه، وعلمت كم أنت غارق في نعمة يغبطك عليها الآخرون.

إن وجود أشخاص لهم أهمية عظيمة في حياتك، ويملؤونها دفئًا وحنانًا وجمالًا، يجعلك لا تُفرط باستمتاعك بهذه الأجواء؛ لأن هذا الواقع لن يدوم طويلاً، نعم هو ربما لن ينقطع، لكن يضعف اللقاء نظرًا لطبيعة الحياة وتفرع هذه الأسرة إلى أسر أخرى كل واحد منها سيكون له عالمه الخاص، حيث تبدأ العجلة بالدوران من جديد على محطات أخرى وأفراد مختلفين.

على المدى البعيد، لن يشعر بمرارة الفقد الفعلي لهذا الجو العاطفي الجميل إلا اثنان، أحدهما أكثر ألمًا من الآخر، الأول: شخص لم يتوفر له الجو الأسري نظرًا لكون هذه الأسرة من أول قيامها لم تُوفق للترابط، ولم تتعد على الوصل، فنشأت على أساس خاطئ، كلما طال به الأمد إذ بالبناء يميل حتى يتهاوى، أو يبقى صورة مُتماسكة في أعين الناس، ولكن في حقيقته يُعاني من الانهيار.

على أنه لا يُفوتني أن أشير إلى أن كثيراً من التصرفات التي تُؤدي إلى هذا الحال تقوم على التخيلات، وبند الواقع الذي يمكن أن يبقى سعيداً، والانتقال إلى خيال نجعله واقعاً فيدمر علينا حياتنا، مثاله: كمن يعيش في سعادة وهناء لكنه نظراً إلى ما يدور حوله من وقائع حيّة، أو مقاطع مرئية، أو كتابات مُحِبطة، فنقل الخيال الذي مرَّ أمامه إلى واقع تعامل به في حياته، فدمر عليه أنسه وسعادته، ولو لم يكن كذلك، فأخبرني ما السبب الذي بنى كثيراً من الحواجز بين ابنة صغيرة وأب لطيف، لم تُعطه فرصة ليتقرب منها؟ هذا لأنها تعاني من صُور مرت أمامها لأب آخر، فنقلت واقعه إلى حياة والدها، فبنت حاجزاً بينها وبين والدها، وعلى إثر ذلك لم تستمتع بوقتها معه، وقس على ذلك علاقة الآباء بالأمهات، والإخوة بالأخوات، وهذا الذي يجعل الأسر تنشأ على بُنيان ضعيف التشييد فلم ينتفع أهله به.

وأما الصنف الثاني ممن يُعاني شعور الفقد: فهو الذي توفرت لديه كل أسباب الدفء العاطفي في أسرته، ففرط فيها أثناء وقته المحدد له معها، حتى مرت الأيام، وضعفت العلاقات، فلما رجع ليرمم البناء فإذا به لم يستطع، فسَلَّم إلى واقعه الذي كان هو سبباً فيه، ومع ذلك تبقى في حلقة غُصّة كلما رأى استمتاع الناس بمن حوّلهم وهو يفقد ذلك الجوَّ الأسريِّ الحنون.

الأسرة هي السرور، وقد كنت أنصح من حولي ممن درّسته من صغار السن في الجامعة أو خلال محاضراتي الأخرى بكلمة طالما ردّدتها عليهم مراراً: «أعط

والدك فرصة للتعبير، أعطِ والدتك مجالاً للحديث، لا تعش وهمًا يجعلك تبني حواجز بينك وبينهم حتى تتخيلهم عاجزين عن إسعادك، وربما يحاولون معك مرارًا ليعبروا لك عن مشاعرهم، فتصددهم عن ذلك، فيتركوك وما اخترت لنفسك، وفي آخر المطاف ستكتشف خسارتك، لكن في وقت يكون فيه كل شيء قد قام أساس بنائه على مكان لا يمكن تحويله منه إلى مكان آخر، وربما تأتي لتعالج، لكن في الغالب لن يكون هناك مُتعة؛ لأن الأمر قد جاء في غير وقته».

الاستمتاع بالطفل يكون في حال الصغر وما تتصف به الطفولة من الظرافة والمواقف المضحكة، والاستمتاع بالوالدين يكون في حال الحاجة وعجز الصغير عن القيام بأمر لا يستطيعها إلا الكبار، فيحتاج إلى من يُعينه عليها من الوالدين، وهذا كفيلاً بتقوية العلاقات الدافئة بين أفراد الأسرة، فتخيّل لو أنك تركت من احتاج إليك في حال عجزه، أو فوتت الاستمتاع بشخص في حال جاهزيته لهذا الأمر، ثم جئت لتفعل هذا الشيء في حال فواته، فهل تظن أن يكون هناك انتفاعٌ يروي ظمأ القلوب العطشى المحتاجة إلى فيض من حنان؟

إذا علمنا ذلك وجب علينا أن نعرف مقدار نعمة الأسرة، ونستمتع من خلالها بكل أمرٍ في وقته، حتى إذا افترقت الأبدان في سبك الحياة، بقي معنا الحنان الذي يدعونا لأن نكون أوفياء، ونُمد جذور الوصل العاطفي والمحبة القلبية، التي متى احتجنا إلى شيء منها وتلاقت الأبدان من جديد، لم نشعر



بالغربة القلبية، أو نُعاني من العلاقات الباهتة والمشاعر المتكلفة التي تصطنع من أجل أعين الخلق وخوف كلامهم، بل يكون اللقاء فرحةً تتجدد، وشعورًا يمتد، ليبقى واقعاً أجمل ينعكس على أجيالنا القادمة، التي شيدنا لها البنيان بأسرة قامت على أسس ثابتة، وجذور متصلة، حتى ازدادت بهجةً ودفئاً ورحمةً.

## البحث عن صديق

قلوب الناس مليئة بالقصص والحكايات، حقيقية كانت أو متوهمة، ومع ذلك فإنَّ فيها ما يرى أنه حِمْلٌ ثقيل، يحتاج صاحبه مَنْ يساعده على حمله أو التخفيف عنه، ويفتقر وهو يصارع الأحداث المزعجة إلى مَنْ يخفف عنه وقع الألم، من صديق يفهم شكواه، أو بثَّ لمشاعره المزدحمة، ولكن ليس أيَّ صديق. حين يُقَلِّب المرءُ النظر في علاقاته مع الآخرين، يجد أنه يعيش بين جملة من الأصدقاء، وحين يُمعِنُ النظر جيداً يتبيَّن أنهم ليسوا بمنزلة واحدة، بل قد يتردد أن يُسمِّي بعضهم صديقاً، بل ويعلم مع طول الأمد، أن كثيراً ممن كان يظنهم أصدقاء لم يكونوا في الحقيقة إلا من جملة المعارف.

لنتأمل في حياتنا، قد تجد في حياتك مجموعة من الأصدقاء، تعيش معهم أو بينهم عمراً طويلاً، ومع ذلك لم تحتج إليهم يوماً ولم يحتأجوا إليك، لا من ناحية المادة ولا بذل الجاه، فتكون مهمة الصداقة وإن كانت لذيدةً، لكنها حقيقة لم تكن صعبة.

ومع ذلك فقد تحتأج إلى صديق حقيقي يُبادلك المشاعر، وأعلى درجاتها: أن تشعر أنك أمام صديق لا يتعامل معك بشيء من الانقباض، أو قل: بعض الرسمية التي لا يتصرَّف بها مع غيرك.

رأيتُ من أحوال الناس مَنْ يشتكي من صديقٍ له، هو يعامله بطريقة الورق المكشوف، وفي المقابل فإنَّ ذاك الصديق يتصرف معه بشيء من الانقباض، وكأنه يريد أن يوصل إليه إشارةً بأن علاقتي معك تقف عند هذا الحد.

نعم، ليس من المُستحسن أن يكون المرء مُنفتحًا مع صاحبه في كلِّ أسرار حياته، فبعض الأمور يجب أن تبقى سرًّا حتى عن أقرب الأشخاص إليه ولو كانوا من أسرته، وبعض الأسرار تخص بيته فلا ينبغي أن تظهر لأجنبيٍّ مهما كانت قوة العلاقة معه، لكن على الأقل لا بدَّ أن يشعر المرءُ بأنَّ هذا الشخص الذي انفتح معه بشيءٍ من أسرار حياته ينبغي أن يعامله بنفس الشعور.

في تصوري أنَّ الشخصَ الذي تُصاحبه لزمٍ مديد، ثم ترى أنه يتصرف معك بشيء من الانقباض عن الإدلاء بمشاعره كما أنت تفعل، هذا لا يُصنَّف من جملة الأصدقاء.

كنتُ أسمع من بعض الأشخاص شكوى تحمل في طياتها ألمًا دفينًا، مفادها أن فلانًا الذي أشاركه أدقَّ تفاصيل حياتي، أرى حين أحدثه في بعض أموري يتلقاها ببرود أو بعبارات باهتة، رغم أنني أرى انفتاحه مع بعض الأفراد، فأستغرب؛ لِمَ يتصرف بهذه المشاعر الباردة تجاهي؟!

تأملتُ في شكوى هذا المتألم، فرأيت شخصًا ناجحًا مقبولًا ليس عنده من الصفات التي تُنفّر من انفتاح صاحبه تجاهه، فوقع في نفسي أننا قد نخطئ كثيرًا في تصنيف بعض العلاقات على أنها صداقة، بل كان اللائق بها أن تسميها فرض

واقع، أو مصلحة خفية مُتأملّة تظهر حقيقتها مع الوقت، أو تجانسًا في الطباع، ومع ذلك كله لا تستطيع أن تدخلها في مسمى الصداقة، وأكبر دليل على ذلك: أن ترى مع طول الوقت كثيرًا ممن تربطك بهم علاقة إذا طال بكم الزمن يتحولون إلى نقطة في حيز الذكريات، ولا يثبت في حياتك إلا أشخاص مُعيّنون لا تستطيع أن تطلق على بعضهم أنه صديق إلا القليل النادر.

ولذلك لا تعجب أن بعض الناس قد يتعد بدنيًا عن بعض أصحابه، نظرًا لظروف الحياة، وقد ينقطع عنه طويلاً، لكن لو دهمه موقف من أحداث الحياة تواصل مع فلان الذي طال أمد التواصل معه، وأعرض عن أناسٍ يلاصقونه في كل يوم، ولم يبح لهم بحاجته، لا تتخيل للحظة أنه فعل ذلك لأنه صاحب مصلحة لا يذكر الناس إلا إذا أحتاج إليهم، بل قل: علم أن صديقه الحقيقي الذي سيفهم مُعاناته هو صديقه القديم الذي ادّخره لمثل هذه المواقف.

والناس إنما يرمون أثقالهم على المرء الذي يوقنون أنه قادر على حملها، فلا يتباطأ ولا يبحث عن أعذارٍ لينأى بنفسه بعيدًا عن ميدان الاضطرار إليه، ويكفيه فخراً في نفسه أن يرى الناس وقد وضعوه في هذه المنزلة.

الصداقة أمر جميل، وواقع لذيذ، وقد لا يحتاج الصديق إلى مال صاحبه ما عاش في هذه الحياة، ولكنه يستمتع بالحديث إليه، وفي رأيه أنه إن رآه باهت المشاعر، بارد التلقي لِمَا يخبره به، أو لا يبادلّه ذات التصرف فيدلي إليه ببعض أموره، فهذا ليس بصديق، والواجب عليه أن يلتفت إلى غيره ممن يحبه ويألفه، حتى لا يكون كمن غرس بذراً في غير أرضه، فكان مآله الذبول.

إن أقوى درجات الصداقة هي بذل المشاعر، أما التصرفات فهي تابعة من هذا الشعور ونتيجة له، فإن لم تجد ذلك مع أنه لا يكلف الناس شيئاً، فاعلم أن هناك جداراً عازلاً، فلا تُضع وقتك بالانتظار أمامه متى يزول، بل غير مسارك نحو من تجد عنده قلبك.

## الحرمان على قدر العطاء

من المؤسف أن يستقرَّ في النفوس أنه على قدر ما تُعطي يكون الحرمان! فهل يتوجب عليك أن لا تعطي كثيرًا؛ بل وتمنع كثيرًا، حتى يشعر الناس بعطائك حين تعطي؟!

مع الأسف أن هذا هو حال الكثير، إن أعطيت شيئًا رأوا أن هذا العطاء من قبيل الواجب، لا فضل لك فيه ولا مزية، بينما ترى في الجانب الآخر شخصًا منع من حوله أو من تحت يده من أمورٍ مهمّة في حياتهم، فلمّا فتح لهم باب العطاء القليل، رأوا أن هذا منتهى الفضل.

لا تضيق ذرعًا إن بذلتَ للآخرين، ثم نظرت حولك ورأيت اتصاف الناس بهذه الطبيعة، فأكثر الناس على هذا الطريق، إما نكرانًا لجميل، أو اعتيادًا على نعمة لن يعرفوا قدرها حتى يكونوا في نفس الموقف الذي أنت فيه والحال التي أنت عليها.

لو تأملتَ في حال المحرّومين، للّمسّت حرارة كلماتهم وهم يتحدثون عن نعمة عادت إليهم بعد يأس، أو حق رُدَّ إليهم بعد أن كان مسلوبًا، أو على الأقل ناقصًا.

ربما التعامل بمثل هذه التصرفات طبيعيٌّ لأناس ظنوا أن من باب سياسة الحياة أن أطبق مبدأ المنع، حتى إذا أعطيتُ بعد ذلك عرف الناس فضلي

وشكروني على صغير ما قدمت إليهم ورأوه كبيرًا، لكن الأمر ذاته يكون مُحيرًا إن كان هذا الشخص عاطفيًا يرى العطاء سَجِيَّةً، ويحاول أن يعيد ترتيب أوراقه، وأن يُطبِّق مبدأ المنع الذي لم يعتد عليه، فإذ به يفشل عند أول تجربة عاطفية عاصفة، ربما لأنه يحب أن يبقى طَبْعُه الرقيق كما هو لا يتغير، ولو كان في المقابل أن لا يرى في أعين الناس شكرًا وامتنانًا، ويعود بعد ذلك منكسرًا.

لا شك أنه لا يحسن بالمرء أن يعمل من أجل أن يشكره الناس على عطائه أو ما يقوم به من واجباته، لكن في المقابل لا بد أن نعرف أنه لا ينبغي التعامل بجلافة مع مثل هذه النفوس الكبيرة التي تعطي بلا حدود، حتى يسكن تلك الأبدان الشامخة نفوس مُنكسرة.

الناس يهربون من الحقيقة التي يعترفون بها لأنفسهم بصمت، وهي أنهم يحتاجون إلى كلمة ثناء، لا ترد الجميل لكنها تجبر النفوس، وتُقوي العزيمة، لا سيَّما إذا كان العطاء لا حدَّ له، فإذا لم يظفروا بذلك علموا مقدار ما يعيشه الناس من النكران.

تخرج مع طفلك، تمرُّ به محلاً للأغذية، تشتري له حلوى بأزهد الأثمان، تجلس بجانبك ثم تنطلق من فمه جملة ثناء ودعاء أن لا يحرمه الله منك، يرقص قلبك طربًا، ثم تلتفت حول نفسك قائلاً: ألا يتعلم الكبار جمال العبارة من هذا الطفل؟! ألا يعلمون كم أزال هذه الكلمة من التعب؟!!

ثم تجيب نفسك قائلاً: لا تحزن، فهكذا هم البشر، على قدر ما أعطيت وتنعم الناس بما تبذله، ولم يشعروا بالحرمان الذي يجعلهم يتلذذون بالعطاء

بعد فقد، على قدر ما حرموا غيرهم من أن يتلذذ بعطائه، بل والأنكى أن تخرج منهم العبارات الناطقة أو النظرات الصامتة: «أن هذا واجبك، وكل الناس مثلك، وليس لك فضل».

فتعود إلى نُقطة البداية، تحاول أن تحرم ليشعر الناس بفضلك، فيصعب التطبيق، إما لفوات الوقت، أو لأن هذا اللباس لا يليق بشخصك المعطاء ونفسك الكبيرة، فتبقى في قمة العطاء ولو كان في المُقابل أن تشعر بالجرمان.



## كن لطيفاً.. ولكن..!

اللطف في العلاقات مطلب مهم، وهو بلا شك توفيق من الله لمن اتصف به، فهو بوابة إلى القلوب، وأداة مهمة من أدوات التأثير على الغير، حيث إن المتصف به يستطيع من خلال اللطف بالمعاشرة -قولاً أو فعلاً- أن يقنع الآخرين بما يريد، ويروّض نفوسهم لقبول ما يريد بثه فيها، والناس في كل عصر يجني المتلطف بهم من الثمرات ما لم يجنيه غيره.

وفي هذا الزمان الناس أحوج إلى التلطف بهم أكثر من أي زمان مضى، نظراً لتحوّل الحياة إلى حياة جأفة، كثرت فيها المشوشات، وظهر فيها مبدأ الـ«أنا» على السطح واضحاً جلياً.

لا تظن أن المرء إذا تلطف بالآخرين انحصرت فائدة ذلك على المقابل فقط، كونه لم ير أو يسمع ما يؤذيه، أو يُنجز له عملاً كان متوقفاً، وما أشبه ذلك، بل إن المتلطف لا يعدم فوائد كثيرة من خلال تلتفه بالغير، والدخول إلى قلوبهم، فيبادلونه المشاعر، فيهنأ برقة الطبع ولين القلب، وتذوق حلاوة الوصل عوضاً عن الجفاء وقسوة القلب المانعة من كل خير، ويكفي بذلك فوائد عظيمة، ومن جرب امتلاء قلبه بالعاطفة بعد الجفاء والصد، عرف ما تعنيه هذه العبارات.

فَكُنْ لَطِيفًا مَا اسْتَطَعْتَ؛ لِتَحِيًّا سَعِيدًا مَا عَشْتَ، وَلَكِنْ فِي الْمَقَابِلِ هُنَاكَ مَنْزِلَةٌ لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَضَعَ نَفْسَهُ فِيهَا وَلَا يُعْطِيهَا حَقَّهَا مِنَ الْإِحْتِرَامِ، فَيَجْتَرِئُ عَلَيْهِ مِنْ يَرِيدِ تَنْقِيسِ قَدْرِهِ، وَازْدِرَاءِ شَخْصِهِ، فَإِذَا قَادَتْهُ قَدَمُهُ حَتَّى التَّقَى بِمِثْلِ هُوَلاءِ، فَالْوَاجِبُ أَنْ يُحْفَظَ سَمْتَهُ دُونَ تَكْلُفٍ، وَيُظْهَرُ جَوَانِبُ مِنْ ذِكَائِهِ دُونَ مَبَالِغَةٍ، لِيَبْقَى مَنْ أَمَامَهُ وَاقِفًا عَلَى خَطِّ يَعْرِفُ أَنَّهُ غَيْرُ مَسْمُوحٍ لَهُ بِتَجَاوُزِهِ؛ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ -لِقَلَّةِ خَبْرَتِهِ وَتَجَارِبِهِ فِي الْحَيَاةِ- يَظُنُّ أَنَّ اللَّطْفَ دَلِيلُ الضَّعْفِ، وَمِثْلُ هَذَا إِذَا التَّقَيْتَ بِهِ فَلَا تَمَكِّنْهُ مِنْ نَفْسِكَ لِتَتَلَاعَبَ بِهَا تَلَاعَبَ الصَّبِيِّ بِالْكُرَةِ يَدْحَرُجُهَا كَيْفَ يَشَاءُ.

كُنْ لَطِيفًا قَوْلًا وَفِعْلًا، وَلَكِنْ لَا تَنْسَ حَقَّ نَفْسِكَ مِنَ التَّقْدِيرِ وَالْإِحْتِرَامِ، وَإِذَا رَأَيْتَ مَكَانًا لَا يَصِلُحُ لَكَ، وَقَدْ يَخْرُجُكَ إِنْ بَقِيتَ فِيهِ عَنِ اللَّطْفِ، وَرَبَّمَا تَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى التَّجَاوُزِ مِنْ قِبَلِكَ، فَغَادِرٌ بِلُطْفٍ دُونَ أَنْ تُؤْذِيَ أَحَدًا مَا اسْتَطَعْتَ، وَابْحَثْ عَنِ مَكَانٍ يَلِيقُ بِطَبْعِكَ الْجَمِيلِ، وَأَدَبِكَ الْأَصِيلِ، فَالزَّمْهُ، فَالْحَيَاةُ وَاسِعَةٌ الْأَرْجَاءُ، فَلَا تَحْبِسْ نَفْسَكَ فِي مَكَانٍ لَا يَلِيقُ بِكَ، فَيَطُولُ بَعْدَ ذَلِكَ نَدَمُكَ، بِسَبَبِ مَا فَعَلْتَهُ فِي حَقِّ نَفْسِكَ.

## تحريك المياه الراكدة

من غير المستغرب أن يلجأ إليك بعضُ الناس ليُثِّبُوا إليك بأشجانهم وبعض ما يعانون، لكن المفاجأة التي قد لا ينتبه إليها كثير من الناس أن تكتشف أنك محتاج إليهم بقدر حاجتهم إليك أو أكثر.

ولا يلزم أن تكون حاجتك إليهم من نوع حاجتهم إليك، ببث شكواك إليهم، أو سردِ مُعَانَاتِكَ لهم، لكن قد تكتشف أنهم أحيوا عندك بعض الشعور الذي فقدته منذ زمن، وحركوا المياه الراكدة لديك، وكسوا قلبك - بدون قصد منهم - بلباس من الرقة واللين.

كثيرةٌ هي المواقف التي تمرُّ بالإنسان من هذا النوع، حيث يسعى شخص ما في حاجات الناس، ويناضل من أجل أن يُشعرهم بالأمان فيما جاؤوا به إليه، وأثناء ذلك العمل يجد أنه قد خاض تجربة رجع على إثرها بفيض من المشاعر التي تعود عليه بالأمان العاطفي، وراحة البال، وهدوء النفس.

وأنت حينما تنظر إلى بعض نوعياتٍ من البشر يتضح لك المراد من كلامي هذا، فلو تأملت بمن يسعى على الأيتام، أو يكفل الأراامل، أو يساعد المُحتَاجين من الفقراء، أو يركض في حاجة العاجزين عن أخذ حق لهم وقد شغل الناس عنهم، ترى أنه مع الوقت قد كُسي هذا الشخص رقة ورحمة ولطفًا، بل وحتى لو كان في أول أمره قاسيًا، سُرعان ما تغيَّر طبعه وأصبح شخصًا آخر، ربما هو لم

يتنبه إلى ما فاز به حتى ينبهه شخصٌ بقوله: لقد تغيرت يا فلان، أو أن يُمتدح على سعيه بعد أن كانت تنظر إليه العيون بنظرات البغض والازدراء، فهناك يعلم يقيناً أن حاجته لمن جاءه لبيث إليه بحزنه، أعظم من حاجة هذا المشتكي إليه، وما ناله من ثمرات هذا الأمر أكبر بكثير مما قدّمه للآخرين.

ولعلّ من أعظم التوفيقِ للمرء أن يكون أهلاً لحاجات الناس، وأعظم منه أن لا يرى له فضلاً فيما يقدمه، ويرى في نفسه أن ما استفاده منهم أضعاف ما استفادوا منه، فقد يكون أقصى آمانياتهم أمراً مادياً، أو بذل جاه، وهو قد حصل على ما هو أعظم من ذلك: راحة بال، وهناء عيش، وطمأنينة قلب، ورقّة طبع، فيعظم فرحه حين يُعاین فوزه في مضمارٍ قد خسر فيه الكثيرون، مع كونه لا يكلفهم شيئاً، ولكن يبقى الأمر المهم وهو أن التوفيق إلى مثل ذلك هو منّة من الله على عبده، حيث وفقه بفضله إلى ما حُجب عنه كثير من الخلق.

## التوقف المفاجئ

سيمر بك وقت ترى فيه شخصاً قد اعتدت عليه وهو كثير العطاء، يبذل الجاه، ويفزع مع الضعيف، ويواسي المحزون، ثم فجأة وإذ بك تراه قد توقّف عن العطاء، أو ضَعُفَ عما كان يبذله ويسعى فيه، فلا يأخذك العجب، ولا يتملكك الاستغراب، فالإنسان طاقة، ومهما كان معطاءً، فبسبب ضغوط الحياة، لا بُدَّ من لحظة يتوقف فيها عن العطاء، فلا تَطْلُب منه أن يخالف مقتضى الطبيعة البشرية.

إنَّ مطالبتك لشخصٍ ما بأن يبقى على ذات الطبيعة التي أَلْفَهَا لزمن طويل من حياته مَطْلَبٌ صعب، فأنت لا تعرف ما الذي يُعَانِيهِ، وما الذي جعله يغيّر مجرى حياته، فقد يكون بَدَل كلِّ ما في وسعه لمُساعدة الخلق، في الوقت الذي كان يُعَانِي فيه من الانكسار الداخلي، أو قُل: الانهيار الذي لم يُرد أن يُظهِرَهُ للآخرين، لِيَبْقَى غيرُهُ مستمتعاً بما حصل عليه من مَكْسَب، حتى لو كان على حساب راحته هو.

كثيرون هم العُظَمَاء الذين يبذلون بصمت، كما يَبْنُونَ بصمتٍ أيضاً، ربما لأنهم لا يجدون في واقع الحال مَنْ يَقْدِرُ على فهم ما يشكون منه، أو أنه أمرٌ يَسْتَحُون من ذِكرِهِ، فيبقى الأئني بصمت، إلى أن ينقطع النَّفْسُ، وتصمت

الحياة!

ولذلك تجد أن هؤلاء يُمُّر بهم وقت يميلون فيه إلى قلة الاختلاط، أو شيء من العزلة، وإن اختلطوا كانوا كثيري الصمت، طويلي التأمل، وربما تسكن بين جوانحهم عبوة كبيرة، قد تنفجر دفاقة عند أدنى اصطدام ببعض أحداث الواقع.

فإذا رأيت من هذا حاله، وقد علم عنه قبل ذلك كثرة البذل وعظيم النفع، فلا تكثر عليه بالأسئلة عن تغيير الحال، وكأنك تأتيه مُعتتا، فماضيه الجميل يشفع لحاضره الساكن، والتمس له العذر، بل وادفع عنه ما استطعت، فلعله كان يجاهد على حساب نفسه، حتى وصل إلى النقطة التي لم يستطع أن يتحرك بعدها، فرأى لزاما عليه أن يتوقف.

قد لا يستشعر هذا الحال إلا المُنصفون الذين علموا أحوال الناس أو حنكتهم التجارب، فعذروا ذلك العمود الشاخص؛ لشعورهم بأنه لم يبق منه إلا وقوفه الشامخ مع تحطم داخله الذي يتطلب ترميمه عناء شديداً.

وقد يأتي من يثرب عليه، ولا يلتمس له أدنى عذر، فإذا تقدم العمر، فمسه شيء مما مس صاحبه، علم يقيناً أنه كان معذوراً، وأنه كان قوياً رغم تراحم الآلام، وتشتت الأحلام.

ولذلك كان أكثر الناس نجاحاً: من جمع الله له شتات فكره، فأثمر سعيه حينما أراد الوصول إليه، فإذا كثرت حوله الوقائع والأحداث، مع طلب من لا يعذر، وضجيج من لا يكف، رأيتُه وقد انقطع عما اعتاده الناس منه.

فإذا أردت أن تعرف أسباب ذلك، فانظر إليه فقط من باب الإنصاف، فهناك ستتسع له عندك مساحة العذر، وتفتح له أبواب التبرير.

## وهم المثالية

نبالغ كثيراً في رسم النظريات التي تكون من نوع المثالية التي يصعب تحقيقها في الغالب، ونكتشف ذلك عند أول محاولة لنقل تلك النظرية إلى أرض الواقع.

كثيرة هي القرارات التي يتصور المرء أنه لو أقدم عليها لانفجرت له كثير من المواقف الضنك، وفتحت له أبواب الراحة، وحين يصل إلى مرحلة التطبيق يجبن أن ينقلها إلى أرض الواقع لسبب من الأسباب، فيتأخر، وبسبب هذا التأخر ربما يدفع ثمن ذلك من جميل أيامه.

انظر في واقع الناس، دورات تدريبية، مؤتمرات تأهيلية، استشارات سلوكية ونفسية واجتماعية، حين تستمع إلى كل ذلك أو تراه، يُخيل إليك أن أي مشكلة ستعرض إليك أو إلى غيرك، سيكون من السهل حلها من خلال تطبيق تلك الخطوات التي تم تلقيها ودراستها، ولكن حين تواجه الواقع تجد أن هذه النظريات قد تبددت وصعب تطبيقها، وهذا ليس لأن تلك الخطوات والحلول غير صحيحة، ولكن لأن الأشخاص الذين تُعرض عليهم يختلفون من ناحية القبول والسلوك.

فإذا علمتَ ذلك، أقمتَ العُدْرَ لكثير من الناس الذي يتملِّك العجب والاستغراب من أنهم لم يتَّجَّهُوا إلى ذلك الاتجاه مع أنه واضح، وتنسى أنه قد لا يكون اتَّضح لهم كما انكشف لك، أو أنهم علِّمُوا منه ما تعلم، ولكن جاءهم ما هو أقوى منه، فمَنَعَهُمْ من الأخذ به.

لا تنظر إلى الناس من باب الأسباب المُجرِّدة والقواعد المطلقة، بل انظر إليهم من باب الواقع، فهذا فيه رفق بالناس ورحمة بهم.

تعوَّدت منذ زمن بعيد حين يأتيني بعض الناس يطلب الاستشارة في موضوع ما، أن أعطيه كل ما يلزمه من المشورة، وأحاول أن استوعب كل ما يجري حوله، فأغلق أبواب الخلل ما استطعت، ومع ذلك فقد عمدت في الغالب على إيراد جملة أقولها بعد كل مشورة أقدمها لمن جاء يستشيرني: «إنما المُستشار مثل خياط الثوب الذي يبذل جهده في إخراجه على أحسن هيئة، لكن الذي يعرف مدى مُناسبة القياس لجسمه هو أنت»، وإنما أعني بذلك: أن أترك للمُستشير مجالاً واسعاً في الاختيار والتطبيق، فقد يكون الحل صواباً لكنه لا يستطيع تطبيقه؛ لأنَّ المُتلقِّي لن يتقبَّل ذلك.

كنت أرى من الخطأ عند بعض المستشارين -أيًا كان نوعه- حين يأتيه من يشكو إليه خصماً ما، أن يتوجه بكلامه إلى حال الخصم بقوله: كان الواجب أن يفعل كذا، أو: لا يحق له أن يفعل كذا، ونحو ذلك من العبارات، وفي رأبي أن مثل هذا الصنيع لا يحل المشكلة، لأنَّ الشَّاكي لن يستطيع أن يرغب أو يقنع



خصمه بفعل كذا وترك كذا، وكان الواجب على المستشار أن يتوجه بحديثه إلى الشاكي، فيخبره بكيفية العمل تجاه المشكلة التي يعاني منها؛ أن يتأقلم مع واقعه مثلاً، أو يصبر، أو يقطع الطريق، أو يُنهي التواصل، ونحو ذلك، ففي هذا راحة للشاكي أكثر من إنقاله بهمَّ آخر زيادةً على ألمه النفسي حيث نحمله مسؤولية تغيير سلوك الخصم؛ لأنه ثَمَّةَ فَرْقٍ كبير بين الشكوى الودية، والخصومة القضائية، فالأولى تعالج مشكلة صاحب الشكوى، والثانية تعالج تجاوز المُعتدي ليردَّ الحق لصاحبه دون النظر بما يلحق ذلك من التأثير على العلاقات الخاصة.

وحين نعرف صعوبة تطبيق النظريات على أرض الواقع في كثير من الوقائع؛ يتَّضح لنا جلياً سبب صبر كثير من الناس على أصناف من الأذى والتعب النفسي؛ ذلك لأن البديل الواقعي لن يُنهي المشكلة بقدر ما يزيد الأضرار التي تلحق بالمتضرر زيادةً على ما هو فيه.

كم نتمنى أن تُنقل كثير من النظريات الجميلة إلى الواقع حتى يزدهر، لكن حينما تعلمُ أن الواقع لا يتسعُ لذلك، يجب أن تترك مجالاً رحباً للآخرين إذا لم يُقدِّموا عليه، فلا تنظر إليهم شزراً؛ بل قل: الواقع أقوى من النظريات!

## رحلة بلا توقف

ستأتيك لحظة تعرف فيها أن الحياة أشبه ما تكون بقطار سائر، لن يعني له شيئاً أن تتركب أو لا تتركب، ولن يتوقف من أجلك حتى تفكر هل تتركب أم لا، فالركاب كثر، والمراحل متعددة، ومحطات التوقف المؤقت لن تمنعه من السير إلى حيث الهدف المنشود، والغاية المرادة.

إن علمت ذلك؛ فارتق بنفسك، وتعامل معها بلطف، خصوصاً فيما يتعلق بالتفكير، ولا تظن أن الحياة متوقفة عليك، أو أنها تنتظر رأيك وماذا تقرر، فالبديل متوفرون، ولن تنال من التفكير فيما يكون وما لا يكون إلا إرهاب قلبك، وإثقال فكرك بما يعود عليك بانهايار القوة، وضعف البدن.

ربما أكون كغيري لم اكتشف هذه الحقيقة إلا بعد سنوات من خوض غمار الحياة، حيث كنت أعتقد أن مصير شخص ما أو حياة آخر متوقفة عليّ، ثم اكتشفت أنني وضعت نفسي في دائرة من شأنها أن تكدّ الذهن حتى لا يستطيع بعد ذلك تجميع أفكاره لينطلق نحو ما يطمح إليه، فكان ما ندور في فلكه مجرد نظريات لا يمكن تنزيلها على أرض الواقع، والنتيجة من ورائها تعب القلب دون جدوى.

كنت أرى بعض الناس قد أجهد نفسه بالتفكير في شأن من حوله حتى تحولوا إلى سلبين لا يستطيعون مواجهة الحياة، بسبب أنه تحمّل عنهم المسؤولية

لدرجة التفكير نيابة عنهم، ونسي أثناء ذلك أنه حمّل عقله فوق طاقته حتى دهّمته الشّيوخوخة رغم شبابه، وحين نظر إلى أقرانه وجد أنهم ما زالوا يتمتعون برُوح الشباب، وفكر مجموع غير مُشّتت، والفرق بينه وبينهم أنهم قسموا المسؤوليات الذهنية، فأخذوا ما يطيقون بحدود مسؤولياتهم، وكلفوا غيرهم بتحمل مسؤوليته الذهنية والبدنية، ثم لما نظر إلى النتيجة رأى أنّ في مُحصّلة الأمر قد بلغ كل واحد هدفه الذي يُريد، ولم يتوقف القطار طويلاً لينتظره، بل إنه استغلَّ فرصة وقوفه المؤقت ليركب به حتى يوصله إلى حيث يريد.

الحياة لن تتوقّف، وثق أن المرء إذا احتاج إلى نفسه سيتحوّل من شخص سلبى إلى شخص يسعى بكل شراسة حتى يحقق مَصالحه ويظفر بحاجته، وأكبر دليل على ذلك: انظر إلى المرأة التي تُوفّي زوجها وترك لها مجموعة من الأبناء، وقد كانت ضعيفة تعتمد على زوجها بكل شيء، فجأةً ولأنها احتاجت ترى أنها تحوّلت إلى شخصٍ قوي؛ نظراً لما تعلق بها من المسؤوليات والأولاد، أين كانت هذه القوة؟ كانت دفينه قد أخرجتها الحاجة إليها، فبحثت عنها في خفايا نفسها فوجدتها عند أول مواجهة مع الواقع.

فإذا علمت ذلك، فتلطف مع نفسك وارجمها، الحياة لن تقف عليك، لا تضغط نفسك حتى تخرّ من طولك إلى الأرض دون سابق إنذار، أعط الحق الذي عليك، والواجب المتعلق بك، لكن لا تقتل نفسك بالتصرف بدقة تجاه كل موقف، حتى لا يقتلك الإجهاد الذهني، فتظهر آثاره من خلال تشتت تصرفاتك وانهايار بدّتك، وتذكر دائماً أن القطار سائرٌ إلى حيث وجهته المُقررة ولن ينتظرك، وبقي الأمر متعلقاً بك؛ تتركب أو لا تتركب، وهكذا هي مواقف الحياة.

## الخروج من الدائرة

لم يكن ذلك الشخص يظنُّ أنَّ العمر سيجري سريعاً، كحلمٍ زائرٍ مرَّ على أجفان نائمٍ، فاستيقظ فياذ بالأحلام لم يبق منها إلا الآلام. كثيرةٌ هي المواقف المؤلمة، والعبارات المزعجة، والعلاقات المتوترة، حتى يشعر من مرت به بشوق إلى الهدوء، وطمأناً إلى الراحة، التي قد تحصل أو لا تحصل.

يبدأ بعض الناس في التعبير عن ذاته، فيرسم حبراً على ورقات بيضاء، حتى يجد أنه قد كثر الكلام، وتزاحمت العبارات، واختلطت الأحرف، وكأنه يبحث عن شيء مفقود، لا يدري ما هو، وأين هو؟

لعل في حياة الكثيرين شيئاً يبحثون عنه، لم تظهر علاماته، ولم تتبين ملامحه، وربما بعد زمن طويل سيعثرون على شيء يملأ أجوافهم بالقناعة أنَّ هذا هو ما كانوا يبحثون عنه، فينعكس هذا الشعور على حياتهم فيضفي عليها رونقاً من السعادة.

لا أدري هل الناس يفتقدون بعض الأشياء حقاً، أم هو مجرد شعور، لكن في ظني أنَّ هذا الأمر يمثل سلوكاً معيناً في حياتهم، ولذلك كان أسعد الناس من تعلق قلبه بالله، لأنَّ الشعور بفيضان القلب بالسعادة سيبقى ملازمًا لأيامهم

بصورة تفوق الوصف، ويكفي أن ذلك التعلق سيُطفئ في قلوبهم لهيبَ الشعور  
بالفقد.

الشعور الوجداني له تأثيرٌ في حياة الفرد، وينعكس على سلوكه، ومن أجل  
أن يسعد في حياته عليه أن يلتمس الفرصة التي تشعره بالسعادة والآنس، وسبيلُ  
ذلك: أن يبادر إلى ما يرى فيه سعادته دون تردد، فتفويت الفرصة السانحة  
واضحة المعالم بتحقيق السعادة على أمل أن يحصل على فرصة أخرى أفضل،  
هو في الحقيقة تضييع للوقت وهدرٌ للطاقة، وقد تأتي تلك الفرصة المُتخيَّلة وقد  
لا تأتي.

كَمْ مرَّت بنا أوقاتٌ عظُم فيها ندمنا على شيء مرَّ بنا ففوتناه! وبعد زمن  
طويل اكتشفنا أننا لو أخذنا به لتغيرت مجريات حياتنا، وكان واقعا أفضل مما  
نحن فيه، وأدركنا بعد مرور الأيام أننا بسبب تأخرنا أو تردُّدنا باتخاذ القرار قد  
دفعنا ثمن ذلك من جميل أيامنا.

ولأن التاريخ لا يعودُ إلى الوراء، فليس من المُستحسن أن نعيش على  
أنقاض الماضي ظناً أن مجرد التفكير به سيغير حياتنا، بل نكمل مسيرة الحياة  
وفق واقعا الذي نعيشه، ونعلم أن ذلك الأمر لم يُكتب لنا لحكمةٍ يُريدها الله  
سبحانه.

المُشكلة التي يمرُّ بها كثير من الناس أنهم لا يريدون أن يتأقلموا مع واقعهم،  
وهذا مما يجعلهم يعيشون في دائرة التوتر والاضطراب.

ولو أنهم فرّقوا بين الواقع والمأمول لعلموا المقدار الفاصل بين الراحة والعناء، فكثير من أمور الحياة لا بدّ من التعامل معها كواقع، مع الأخذ بالاعتبار أنّ الواقع قد لا يكون مُقنعًا لكن لا بُدّ من التأقلم معه.

حين كان بعض الناس يعرض عليّ مشكلة تهمه، كنت أقول له: تأقلم مع واقعك، ثمّ أُرَدِّف قائلاً: لا أعني أنّ واقعك جيد، ولكن أقصدُ أن تعيش معه كما هو مع الوضع في المُخيلة أنه ربما لن يتغير، وفائدة ذلك: أنك حينما تَضَعُ هذا الشعور في نفسك، ستتعامل معه كما هو وليس كما تُريد أن يكون عليه، وهذا يحد ذاته كافٍ لأن تشعر بالهُدوء مع نفسك حتى تُخْرِجَها من دائرة التوتر.

اصنع لنفسك واقعا سعيدا قدر الإمكان، أخرج نفسك من دائرة التوتر، انظر إلى النصف المملوء من الكأس، ولا تنظر إلى الجزء الفارغ، فالنظرة الإيجابية ستدفعك إلى تحقيق فرص السعادة.

لا تجعل الوقائع سبباً في كسرِكَ، بل دافعاً للقيام والنهوض لتحقيق ما تريد من الأهداف، وتأمل: كم أخرجت المحن التي مرّ بها بعض الناس أفراداً ناجحين، فهنالك تعلم موقناً أنه ربما يولد النجاح من رحم البلاء.

وإذا داهمك الشعور بأنك تبحث عن شيء مفقود، فلا تَضِعْ وقتك بالسؤال عما يكون هذا الشيء، فتعب ذهنك وتفكيرك حتى يشيخ، ولكن بادر إلى العمل بما أمكنك من أسباب، حتى تُصيبَ ما تبحث عنه، أو يتحقق لك واقع لم تكن تحلم به.

## متعة اللحظة

كثيرة هي الأحلام التي تنشأ صغيرة، ثم لا تزال كذلك حتى تكبر، وقد تتحقق وقد لا تتحقق، فهكذا تسير الأمور إلى حيث يُقدِّرها الله ﷻ.

لكن الذي قد يُشعر بالألم: أن يتحقق ذلك الحلم في غير وقته! حينما يُفني المرء شبابه، ويحمّل قلبه فوق ما يُطيق، ويستهلك في سبيل تحقيق ما يريد أجمل أيامه، لكنه لم يحصل له ما يريد إلا في وقتٍ مُتأخّر، أو قُل: في الوقت الخطأ!

لا شك ولا ريب أن كل ما يقدره الله للعبد خير، وعليه أن يتلقى ذلك بالقبول؛ لأن تأخير ما كان يطمح إليه ربما كان المُراد منه اختبار صبره ولجؤه إلى ربه وخالقه، لكن في مجريات هذه الأحداث كانت هناك متعة ما، الذي يجعلها مميزة أن تأتي في وقتها.

لن يستشعر جمال اللحظة الكاملة رجلٌ قد فاض في يده المال حين بلغ الستين من عمره، لأنّ الصّحة والقوة التي لم تكن هي كفترة الشباب، وإن كان قد بقي مقدارٌ من اللذة يستطيع أن يستمتع به، بل وربما يرى أن مجيء المال في فترة النضج أفضل؛ لأنه ربما لو كان المال قد حصل في فترة الشباب لمال إلى بعض التصرفات غير السويّة، لكن الذي نَعنيه: أن مجيء المال مع الصّحة وشيء من الفراغ يُجمّله حيث يستطيع الاستمتاع به على وجه الحقيقة، شريطة

أن يخاف الله في تصرفاته، فاللبس والرحلات والطعام في فترة القوة نطّاقه أوسع وحده أكبر.

بعض الأحلام مدمّرة إذا جاءت في غير أوانها، وقد تُؤدّي إلى الخروج عن المألوف، وانظر حينما يتعلق قلب الكبير ببنتٍ صغيرة مقدار ما يحصل له من الدمار، فلا هو القادر على التقدّم، ولا هو الطامع بالسلامة، ولو كُبرت أحلامه لم يطّأوعه الواقع، فمن الصعوبة بمكان أن تلتقي شمسُ الغروب بشمسٍ أشرقت للثوّ وما زالت في زمن الإشراق، ولو أنه في بداية أمره استعان بالله حقًا وقال للأحلام: قفي؛ لفاز بالسلامة رغم حدوث بعض الاهتزازات، ومن استعان بالله أعانه، وقد يذهب إلى تحقيق حلمه في جهة أخرى رغم ما يكون فيها من النقص، لكن كونه يحقق بعض أحلامه سيشرعه ذلك بنوع من الانتصار، رغم فقدانه نوعًا من المتعة كان يتخيله ويحلم به، لكن لأنّ هذا هو الواقع فلا بُدَّ أن يسير في طريقه، فالوقوف لن يغيّر الواقع، ولن يكون له نتيجة.

هناك ثمرٌ في البستان كنت تأمل أن يخرج في حله وأوانه، وما زالت عينك تراقبه لتستمتع به في وقته، ولكن تأخر لسبب ما، وحولك من فاز بثمره في وقت أوانه، وأنت ما زلت تراقب، وقد يحصل لك بالتالي لكن مع تأخر الأوان، وستفرح على الأقل لأنك تجنبت الخسارة، أو لأنه تحقق لك ما تعبت من أجله حتى تشعر أن تعبك لم يذهب سُدى، ولكن في داخلك كنت تمنى لو أنه تقدّم على وقت حصوله لتذوق المتعة الحقيقية، وهكذا هي الحياة والمواقف.



وبالرغم من ذلك ورغم وجود حَسْرَةِ الفوات والفَقْدِ في القلوب، لا ينبغي للمرء أن يقتل نفسه كمدًا على ما فات، أو يكثر التفكير فيما تأخر حتى يقتله الهم، بل عليه أن يستمتع بالشيء الذي صار له واقعًا جديدًا، ويكيّف حاله عليه ويستمتع به في وقت مَجيئه، وإن كان يتمنّى أنه لو تقدّم على هذا الوقت، فالأوقات تتسع، والأهم أنه ينبغي لنا أن نكتشف طريقة التعامل مع ما حولنا كواقع لا أماني، فكم كان للعيش في دائرة الأمانى أعظم الأسباب في تشتت الذهن وتَخطيم النفوس!

فالواجبُ: تكييف الواقع حسب ما جاء، وتخطيط ما حصل على حَسَبِ وقت حصوله، مع الثقة أن البدائل موجودة، والمتعة في حياة الإنسان عبارة عن اكتشاف ذاته وفق ما يجري حوله، وأن لا يقف موقف العاجزين الذين يعيشون في دائرة: «لو كان هذا الشيء قد حصل قبل هذا الوقت!» فمثل هذه العبارات تقتل الأمل وتُضعف العزيمة، بل الواجبُ أن تعيش على حَسَبِ واقعك وإن كنت ترى أنه قد حصل متأخرًا، وتُخطط لسعادتك من خلال هذا الواقع، والأهم: أن توقن وتثق بأن ما أخره الله لك -إلى هذا الوقت الذي ترى أنه في غير أوانه- أنه هو الخير، فربما يتأخر الأمر ويجتمع معه الحَسْرَةُ على ما فقدت فيما سبق، فيكون هذا دافعًا لك إلى اكتشاف آفاقٍ جديدة، لو حصل لك منها ما تريد في سابق الأيام لم تكتشفها.

لا تقف موقف العجز، وتُخض بحُور الأمانى، بل تعامل مع واقعك كواقع، فحينها سينكشف لك الغطاء عن واقع جميل حجبته عنك غشاوة العيش مع الأحلام، والتحسّر على ما مضى من سالف الأيام.

فإذا حصلَ لك شيء من الأسباب التي تُعينك على الحصول على المتعة فبادِر إليها، وطوِّع ما حولك حتى يكون على حَسَب ما تتمنَّاه وتأمُّله من الراحة، واطوِّ صفحة الأحلام، فإنَّ الأحلامَ المُجرَّدة لا تبني مجدًّا، ولا تجلب سعادة.

## ليست مجرد ذكريات

لا أدري، هل الذكريات دائماً ممزوجة بالألم؟  
ربما أصبحت هذه النتيجة لديّ تمثل حقيقة راسخة مهما كان نوع هذه  
الذكريات، فإن كانت حزينه ذقت طعم الألم، وإن كانت جميلة تجرعت مرارة  
الفقد!

قبل أيام سافرت على سيارتي إلى البحرين، وفوق ذلك الجسر الفخم  
تذكرت رحلة جميلة عام ١٩٩٥م، جمعتني مع ثلاثة من الأحبة كانوا من آنس  
الرفقاء وأمتعهم صحبة: محمد ذياب ومرزوق ثويني -الذين رحلا عن هذه  
الدنيا وهما في عنفوان الشباب رحمهما الله- وطلال أبا ذراع، وكانوا من أخف  
الناس حملاً على القلب طبعاً ووداعة وكرم يد، فتذكرت مرورنا ليلاً فوق  
الجسر، وبالرغم من ذلك الزحام الشديد إلا أننا لم نتأفف منه ولم نستثقل  
بسبب جمال تلك الرحلة، مع ما رافقها من خبر كان بالنسبة لي من أجمل  
الأخبار، حيث تمّ قبولي طالباً في المرحلة الجامعية في الجامعة الإسلامية  
بالمدينة النبوية بلد العلم والعلماء.

وأنا أكتب هذه الكلمات في عام ٢٠٢٣م، يكون قد مرّ على هذه الرحلة  
ثمان وعشرون سنة، وكأنها ليلة البارحة، دخلت إلى البحرين وكأنّ تلك

الذكريات لا تريد أن تفارق مخيلتي، لعله وفاء لذكريات كان لها أجمل الأثر في أيامي.

ففي اليوم التالي وأثناء مروري بجانب سور المطار، بدأت أبحث عن مطعم دخلناه سوياً في رحلتنا تلك، كان ملاصقاً لسور المطار، متفرداً عن المباني لم يكن ثمَّ غيره في المكان، وكنا نشاهد الطائرات وهي تطير محلقة لا يفصل بيننا وبينها إلا أمتار يسيرة، وكأنَّ ذلك المطعم قد بُني ليدوّن الذكريات، وبدأت وكأني أشتاق إلى احتضانه لما فيه من ذكرى عاطفية تحرّك لها كلُّ وجداني، فإذا به وقد ضاع بين المباني فعفت رسومه.

بكيت محمداً ومرزوقاً، ودعوت لهما بالرحمة والمغفرة، ولي ولطلال بحسن الخاتمة، وعلى الفور اتصلت بطلال في الدمام - حيث استقر - وكأني أريد منه أن يشاركني الوفاء والدموع، فكان في قلبه مثل ما في قلبي وزيادة، بدأنا نتبادل العبارات، وتناول الذكريات، وكأننا ما زلنا نعيش لحظات البهجة والأنس تلك.

ولا عجب، فهكذا هي الحياة، حيث يذهب الرائعون، ويتفرق الجمع، وتمر الأيام وكأنها حلم.

فما أسرع الأيام وما أحقر الدنيا.

## فهرس الموضوعات

- مدخل ..... ٥
- المشاعر ..... ٧
- كثبان الرمل ..... ١١
- ستكبر يا صغيري ..... ١٥
- كم عظيم أنت أيها الجبل ..... ١٨
- لا تُرهم انكسارك ..... ٢٠
- اترك أثراً ..... ٢٢
- أشياءٌ تخفى ..... ٢٥
- القلوب الكبيرة ..... ٢٧
- أعاصير الحزن ..... ٣٠
- اكتب نفسك ..... ٣٣
- التجارب ..... ٣٦
- الحنين إلى الماضي ..... ٣٩

- ٤٢ ..... بين طريقين
- ٤٤ ..... رسالة إلى مغترب
- ٤٧ ..... صديق لا يملك
- ٥٠ ..... ضجيج لا بد منه
- ٥٤ ..... طمع النفس
- ٥٥ ..... غداً سيكون أفضل
- ٥٧ ..... كأنها البارحة
- ٦٠ ..... لا تغلق الباب
- ٦٣ ..... لا تنس نفسك
- ٦٥ ..... لا يلتقيان
- ٦٧ ..... لتعذره.. ضع نفسك مكانه
- ٧٠ ..... لن يمسحوا دموعك
- ٧٤ ..... ماذا تفعل إذا احتاجوا إليك؟
- ٧٧ ..... هل نشترى الدموع لنتراح؟
- ٧٩ ..... وقت الحاجة
- ٨٢ ..... الشوق

- ٨٧ ..... العجائب لا تنقضي
- ٩٠ ..... من دروس الحياة
- ٩٤ ..... ورحلت سارة
- ٩٩ ..... الكتابة
- ١٠٢ ..... كان هنا ثم رحل
- ١٠٤ ..... الأمان النفسي
- ١٠٧ ..... الوجوه العابرة
- ١١٠ ..... بعد ثلاثين عاماً
- ١١٥ ..... سبيل الراحة
- ١١٨ ..... استمتع بمن حولك
- ١٢٠ ..... كسر القلوب
- ١٢٣ ..... الآمال
- ١٢٧ ..... ابحث عن نفسك
- ١٣١ ..... الأب.. الجندي المجهول
- ١٣٥ ..... العلاقات المتموجة
- ١٣٨ ..... لن يفهموك

- الألم..... ١٤١
- الميل إلى الصمت ..... ١٤٣
- لن تكون لك كما تريد..... ١٤٦
- الأسرة ..... ١٤٩
- البحث عن صديق..... ١٥٣
- الحرمان على قدر العطاء..... ١٥٧
- كن لطيفاً.. ولكن..... ١٦٠
- تحريك المياه الراكدة ..... ١٦٢
- التوقف المفاجئ..... ١٦٤
- وهم المثالية ..... ١٦٦
- رحلة بلا توقف ..... ١٦٩
- الخروج من الدائرة..... ١٧١
- متعة اللحظة..... ١٧٤
- ليست مجرد ذكريات..... ١٧٨



\* للتواصل:

[www.salemalajmi.com](http://www.salemalajmi.com)

**Email:** [alajmi250@hotmail.com](mailto:alajmi250@hotmail.com)

 [@dr\\_salem\\_alajmi](https://twitter.com/dr_salem_alajmi)

هذه مجموعة من المقالات، وإن شئت فقل: مجموعة من المشاعر؛ بدأت بين كثبان الرمل، وانتهت بأجاسيس الفقد وآلام الرحيل، وبين هاتين المرحتين توقفت في محطات عبور، فلاح للناظر من خلالها جبل لا يهتر حتى لا يرى انكساره، وأعينٌ تبحث عن دموع لتشتري، وفي زاوية بعيدة وقف شخص لا يستطيع أن يعبر عما في نفسه، وآخر يملك التعبير ولكن لم يجد من يفهمه، فصبر على أعاصير الحزن طمعاً في أن يرى غداً أفضل.

كم نحتاج إلى أن نكتب أنفسنا حتى نعبر عنها، وكم نحتاج إلى أن نفهم الآخرين لنستطيع أن نبوح نيابة عنهم فيما عجزوا عن إظهاره، ليدوقوا طعم السعادة حين يجدون من يفهمهم ويشعر بهم.

فهذه المقالات لا تمثل حياة شخص، وإنما تحكي مشاعر أشخاص متفرقين جمعهم قلم واحد.

فما نكتبه ليس بالضرورة أن يكون جزءاً من حياتنا، ولكنه بلا شك جزء منا وقطعة من قلوبنا.

سأله العجبي